الوعظ

المتنبي هذا الشاعر المشهور أصبح كالأسطورة في الناس ذيوعاً وانتشاراً وأصبح مثلاً في الحكمة والاستشهاد بشعره في كل محفل، ونقف هنا مع بعض أشعاره في الوعظ، وهو قليلاً ما يعظ، فهو مشغول بشهرته، مشغول بلموعه، مشغول بالدنيا، مشغول بإعداد مكانة له في المجد الدنيوي المنتهي المنصرم، حتى إنك تجده عندما يبحث عن المعالي، تجده قتل روحه وأضنى جسمه، وهو يبحث عن الإمارة ويبحث عن منصب، خلاف الذين يريدون الآخرة، يقول في الوعظ:

أبنِي أبينَا نحنُ أهلُ منازلٍ أبداً غرابُ البينِ فيهَا ينعِقُ

يقول: نحن عشنا في هذه الدنيا وغراب الفراق الموت دائماً معنا.

ثم يقول في موضع آخر:

نبكِي علَى الدنيا وما مِنْ معشرٍ جمعتْهمُ الدُّنيا فلمْ يتفرَّقُوا

ثم يستمر في ضرب الأمثال، قائلاً:

أينَ الأكاسرةُ الجبابرةُ الأولى كنزُوا الكنوزَ فلاَ بقينَ ولا بقُوا
مِنْ كلِّ مَنْ ضاقَ الفضاءُ بجيشِه حتَّى ثوَى فحَواه لحدٌ ضيِّقُ
خُرْسٌ إذا نُودوا كأنْ لَمْ يعلمُوا أنَّ الكلاَم لهم حلالٌ مُطْلقُ

يقول: إذا أصبح هؤلاء الجبابرة والسلاطين والذين عاشوا ملوكاً أمواتاً أصبحوا في القبور خرساً، لا يتكلمون عندما تناديهم، تقول: السلام عليكم، كيف حالكم؟

إنِّي أتيتُ أحبَّتِي بينَ الهوَى فِي منبتِي
ناديتُ أينَ أحبَّتِي فوجدتُ أينَ أحبَّتِي

يعني: لا يوجد إلا الصدى، إلا الصدى لمصوّت.

يقول: أتيت إلى القبور، فقلت: أين أحبتي؟ فرد علي الصوت الصدى من الوادي قائلاً: أين أحبتي؟ نفس صوتي أنا، ما أجابوا.

وهذه القصيدة ابتدأ بها المتنبي بالحب والغزل وانتهى بها يمدح معن بن أوس، يقول فيها وهي من أحسن قصائده:

أرقٌ علَى أرقٍ ومثلِيَ يأرقُ وجوًى يزيدُ وعبرةٌ تترقرقُ
جهدُ الصبابةِ أنْ تكونَ كمَا أرَى عينٌ مسهدةٌ وقلبٌ يخفقُ

ما لاحَ برقٌ أو ترنَّمَ طائرٌ ... إلا انثنيتُ ولي فؤادٌ شيقُ
وعذلتُ أهلَ العشقِ حتَّى ذقتُه ... فعجبتُ كيفَ يموتُ مَنْ لا يعشقُ
وعذرتُهم وعرفتُ ذنبي أنَّني ... عيرتُهم فلقيتُ منهُمْ ما لقُوا

كنت ألوم الناس: لماذا تعشقون؟! حرام عليكم، لا ينبغي أن تعشقوا، ضيعتم أوقاتكم، ثم يبدأ بالحكمة:

أبني أبينَا نحنُ أهلُ منازلٍ ... أبداً غرابُ البينِ فيهَا ينْعِقُ
نبكِي على الدُّنيا وما مِنْ معشرٍ ... جمعتهُمُ الدُّنيا فلمْ يتفرَّقُوا

يقول: يا بني آدم، يا إخواني يا زملائي، نحن سنفارق هذه الحياة.. انظر كيف انتقل مباشرة، لكي يصدم الممدوح بالصدمة الأولى بالمديح فيعظ، لأنه أتى إلى أناس فضلاء من أهل العلم والحكمة، فيريد أن يتبجح بأنه رجل زاهد ويعرف أن الموت حق. إلى آخر ما قال. وقد سقت لكم الأبيات والشاهد منها قوله:

كبَّرتُ نحوَ ديارِهم لمَّا بدتْ ... مِنْها الشموسُ وليسَ فِيها المشرقُ

يقول: عجباً رأيت الشموس ورأيت الجمال ورأيت هناك وجوه الناس.

الشاهد هنا: أن الرجل وعظ بالفراق في الموت وأن الإنسان قد ينتهي من هذه الحياة، وأن الدنيا ليست بدار قرار، وقد سبقه عدي بن زيد في الجاهلية، حتى يقول ابن المبارك العالم الرباني الزاهد المحدث: والله إن قصيدة عدي ابن زيد الجاهلي أحسن عندي من قصر الأمير عبد الله بن طاهر بن الحسين لو كان لي.

قصره طبعاً في خراسان شيء مذهل، مثل برج إيفل. إذا ذكرت برج إيفل فهو مشهور جداً، يقول: تعجبني قصيدة عدي بن زيد هذه أحسن من قصر

عبد الله بن طاهر بن الحسين الأمير، عدي بن زيد الجاهلي يقول في صفة الحياة. وكأن المتنبي أخذ منه هذا المعنى، يقول:

أيُّها الشامتُ المعيرُ بالدهرِ ... أأنتَ المبرأُ الموفورُ

يقول: يا من يشمت بنا إذا أصبنا بنكبات ومصائب، أأنت مبرأ لا يأتيك شيء؟ عندك عهد من الله ﷻ ألا تأتيك نكبة، يا من شمت بنا إذا مات أبناؤنا أو أصبنا أو أتتنا كوارث وأزمات، أأنت لا يصيبك شيء؟!

هلْ رأيتَ المنايا خلدنَ أمْ مَنْ ذَا ... عليهِ مِنْ أنْ يُضامَ خفيرُ

يقول: أمن أحدٍ عليه خفير فلا يضام؟! أحد عليه وكيل ألا تأتيه بلوى؟! كلنا مشتركون في هذه المصائب، كل دار ملئت حبرة لا بد أن تمتلئ عبرة، تحت كل خصة غصة، هذه شيمة الدار.

تقول الخنساء:

ولولا كثرةُ الباكينَ حولي ... علَى إخوانِهم لقتلتُ نفسِي

وما يبكينَ مثلَ أخي ولكنْ ... أعزِّي النفسَ عَنْه بالتأسِّي

فالناس أكثرهم في بلاء، من لم يبتلَ في جسمه ففي عقله.. في علمه.. في دينه.. في ماله.. في تجارته.. في أبنائه.. في كل وادٍ بنو سعد.

فهذا يقول: لا تقل: إنك تشمت بنا، سوف يقع لك مثل ما وقع لنا.

مر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ببابل، فوجد قصور بابل قد تهدمت، كان فيها مملكة هاروت وماروت اللذين ذكرا في القرآن، سحر بابل هاروت وماروت، وكان فيها حضارة عظيمة، فهدمت القصور وماتت الأشجار وهاجرت الأطيار وذبلت الأزهار. ما بقي في الدار شيء. بكى علي وتمثل بقول الشاعر الجاهلي الأسود بن يعفور قال:

جرتِ الرياحُ علَى محلِ ديارِهم فكأنَّهم كانُوا علَى مِيْعادِ

يقول: كأنما وقت لهم الزمان أن يذهبوا، لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون، كل أمة لها أجل، سبحان الله! جعل الله لكل أمة ولكل شعب ولكل دولة ولكل إنسان أجلاً، مثل أجل الإنسان الفرد.

فمثلاً: أخذت الدولة البيزنطية مرحلتها، وكذلك دولة حمورابي، الأشوريين.. الكنعانيين.. الفراعنة.. كل منهم أخذ مرحلته، ثم لما أتت الساعة انتهى أمرها وسقطت، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]. ولما أفناهم سبحانه وتعالى قال: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨].

ونعود إلى عدي بن زيد، فيقال: جلس النعمان بن المنذر – وهذا من شعراء النعمان بن المنذر – وكان النعمان جاهلياً، وهو الذي مدحه شعراء كثر منهم النابغة، فجلس في حديقة غناء في الصحراء في يوم ربيع، وإذا الخزامى وإذا الشيح وإذا الأزهار قد فاحت والطيور قد صدحت والنعيم هناك، والمنظر بهيج، قال عدي بن زيد وقد كان صاحب حكمة: يا أيها الملك، أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ طبعاً الشجرة لا تقول شيئاً، لكنه قال هذا لكي يعرض له، قال: ما أدري ما تقول؟ قال: تقول:

رُبَّ ركبٍ قَدْ أناخُوا حولنَا يمزجونَ الخمرَ بالماءِ الزلالِ
عبرُوا حِيناً ومرُّوا زمناً ثمَّ صارُوا جُثَثاً تحتَ الرمالِ

يقول: تقول: كم جاءنا من وفد وذهبوا، وكم قافلة مرت من هنا، وكم من ملك جلس عندنا يمزجون الخمر بالماء الزلال.

قال النعمان بن المنذر: والله لقد نغصت علي عيشي. فأمر بالخيام فقوضت، ثم جاءه بؤس وأسف وندم؛ لأنه وعظه وقال له: لا تغتر، أنت الآن تجلس هنا تلهو

وتلعب، قد مرَّ من هنا قبلك أناس وأمم وأجيال، ثم ذهبوا، قال سبحانه: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨].

فنحن في هذا المشهد مع المتنبي أحياناً يعظك، أحياناً ينبهك أن هناك فراقاً وأن الدنيا ليست بدار قرار. فهذه الدنيا لا تبقي على أحد، ولا يدوم على حال لها شان.

كما قال أبو البقاء الرندي:

أينَ الملوكُ ذوو التيجانِ منْ يمنٍ	وأينَ منهُم أكاليلٌ وتيجانُ
وأينَ ما شادَه شدادُ في إرمٍ	وأين ما ساسه في الفرس ساسان
أتَى علَى الكلِّ أمرٌ لا قضاءَ لَه	حتَّى قضُوا فكأنَّ القومَ مَا كانُوا

يعني: أصبحوا حلماً، وهذه يتداولها الشعراء كثيراً، لكن المشكلة أن الإنسان قد يؤمن بهذه الأفكار ولكنه لا يطبقها في حياته، تجد أكثر الناس يقول: إن الموت حق ونحن سنموت، لكنه لا يعمل لما بعد الموت، وتجده يقول: هذه الدار ليست بدار قرار، وإنها دار غدارة خوانة غرارة، مع العلم أنه مجتهد في جمع الدرهم والدينار، ويعبد هذا، مع أن الإسلام يبيح لك أن تجمع المال من حله وتنفقه في حله، لكن أن يتحول الإنسان إلى خادم وإلى عبد وينسى حقوق الله وحقوق عباده، وينسى لقاء الواحد الأحد فهذا مذموم، ولذلك يقول ابن عيذون الأندلسي الشاعر المشهور في رثائه للمعتمد بن عباد ذاك الملك المضطهد المظلوم الذي انتهى بمأساة وكان مملوءاً حكمة وعلماً ومجداً ونخوة وصرامة، ثم انتهى به المطاف إلى السجن أسيراً في أغمات، سجنه ابن تاشفين، ملك المرابطين، فكانت بنات الملك ابن عباد يمشين في الكافور في القصر، يعجن لهن الكافور فيمشين في القصر ويمشين فيه، فلما سجن أخذت بناته وطردن وأصبحن أسيرات ويعملن ويغزلن بالأجرة الثياب للناس، خياطات، وأتين يوم العيد يزرن هذا الملك المهيب،

الملك العجيب، الذي كأنه بدر السماء، أتين فلما رآهم من السجن مقبلات يزرنه حافيات، ما وجدن ثمن حذاء! انظر إلى الدنيا وتقلباتها، فالإنسان لا يثق بالدنيا، لكن بالإيمان والعمل الصالح، أي شيء لا تثق به، لا الصحة.. ولا الشباب.. ولا الأبناء.. ولا الثروة.. يبقى معك الإيمان والعمل الصالح.. الذكر الحسن.

فلما رآهن وإذا الثياب مشققة، وهن حسيرات كسيرات بكى وتفجع وقال مخاطباً نفسه:

بالأمسِ كنتَ بالأعيادِ مسروراً | فزارَك العيدُ في أغماتَ مأسوراً
ترَى بناتَك في الأطمارِ باليةً | يطأْنَ في الطينِ ما يملكْنَ قِطْميراً
يطأْنَ في الطينِ والأقدامُ حافيةٌ | كأنَّها لَمْ تطأْ مِسْكاً وكافُوراً!

يعني: أما مر أن هذه الأقدام قد مشت من قبل على المسك والكافور، ما لهذا الدهر تغير؟! حتى يقول الأعشى وقد كان في منفوحة في الرياض، وذهب يمدح الرسول ﷺ في قصيدة، لكنه ما تمكن من إلقائها، صرفه حب الدنيا، أعطاه أبو سفيان مئة ناقة فترك الإسلام والرسالة ورجع بمئة ناقة، وسقط من على ناقة في منطقة ديراب هنا قريباً من الرياض ومات، فهو يقول في أول قصيدته:

شبابٌ وشيبٌ وافتقارٌ ولذَّةٌ | فَلِلَّهِ هذي الدارُ كيفَ تردَّدا

فقصدي من هذا الشاهد أن ابن عيذون الأندلسي يرثي ابن عباد يقول:

الدهرُ يفجعُ بعدَ العينِ بالأثرِ | فما البكاءُ علَى الأشباحِ والصُّورِ
أنهاكَ أنهاكَ لا آلوكَ موعظةً | عَنْ نومةٍ بينَ نابِ الليثِ والظفرِ

يقول في آخرها وهو يتحدث عن المنية: إنها ما تبقي أحداً، تزور صاحب القصر وصاحب العيادة وصاحب المتجر والطبيب والمهندس والفيلسوف والشاعر.. تختطف أرواحهم، ثم يقول فيها:

فليتَها إذْ فدتْ عمراً بخارجةٍ فدتْ علياً بمنْ شاءتْ منَ البشرِ

انظر إلى هذا اللغز التاريخي! ليتها فدت عمراً وهو عمرو بن العاص، وخارجة كان أشبه بمدير الشرطة أو رئيس الشرطة لعمرو بن العاص؛ لأن الخوارج أرادوا قتل علي رضي الله عنه ومعاوية وعمرو بن العاص، فجهزوا ثلاثة في ليلة واحدة، فأما قاتل علي وهو عبد الرحمن بن ملجم فوجد علياً فقتله، فصار علي شهيداً، وغضب الله على عبد الرحمن بن ملجم ولعنه، وهو الخارجي.

وأما عمرو بن العاص فذهب له الخارجي في مصر؛ ليقتله وكان عمرو بن العاص قد مرض -سبحان الله، هي الأقدار!- تلك الليلة بحمى، فأرسل مدير الشرطة؛ ليصلي بالناس الفجر، فحسب الخارجي أنه عمرو بن العاص فقتله.

فمقصود ابن عيذون: لما فدت المنية عمرو بن العاص وجعلت خارجة مكانه، فليتها أيضاً أخذت من شاءت من البشر، وتركت لنا علي بن أبي طالب أبا الحسن.

وعلى ذكر علي فقد كان آية في الزهد، وهو صاحب الكلمات الواصلة التي إلى القلوب حاصلة، حتى إن البخاري في كتاب الصحيح في الرقاق بدأ كتابه بقوله:

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارتحلت الآخرة مقبلة وارتحلت الدنيا مدبرة، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل».

ويقول في كلمة له: «يا دنيا دنية، غري غيري، طلقتك ثلاثاً لا رجعة بعدها، زادك حقير، وعمرك قصير، وسفرك طويل، آه من وحشة الزاد وبعد السفر ولقاء الموت».

ولذلك قال المتنبي:

أبداً تستردُ ما تهبُ الدُّنيا فيَا ليتَ جودَها كانَ بُخلاً

هذه فلسفة المتنبي. يقول: إذا أعطتك الدنيا شيئاً تسترده من جهة أخرى، يصح عندك الابن تموت البنت، يتشافى عندك البصر يذهب السمع، فليتها أمسكت رأساً برأس، كفافاً لا لي ولا علي، كما قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في سكرات الموت: «يا ليتني نجوت منها كفافاً لا لي ولا علي» أي: من الخلافة، وقد كانوا يبشرونه، يقولون: أبشر يا أمير المؤمنين، أسلمت فكان إسلامك نصراً، وهاجرت فكانت هجرتك فتحاً، وتوليت فكانت ولايتك رحمة.

وهذا صحيح، كل ما قالوه صحيح، فبكى وقال: «يا ليتني نجوت منها كفافاً لا لي ولا علي».

فالمتنبي جمع هذه المعاني وقال:

أبداً تستردُ ما تهبُ الدُّنْيا ... فيا ليتَ جودَها كانَ بُخْلا

الآن يبارك للإنسان في المنصب، لا يكاد يمكث فيه، وإذا بالعزل يفاجئه.

فهذه فلسفة المتنبي إذا أراد أن يعظ، فهو يتكلم في الوعظ أحياناً، ولا يكثر في ذلك.

والمتنبي له في أبواب الوعظ والموت فصول، ولكنه يجيد صراحة إذا أراد وإذا كان صادقاً في الرثاء، وإذا كان يحب هذا الميت، فإنه يصدق في الدموع ويصدق في إخراج الآهات والزفرات واللوعات عليه، حتى قال في قصيدة يرثي وزيراً عند سيف الدولة اسمه: يماك، يقول:

وقَدْ فارقَ الناسَ الأحبةُ قبلَنا ... وأعيَا دواءُ الموتِ كلَّ طبيبِ

يقول: كل إنسان فارق خليله، فالموت لم يستطع حتى الأطباء أن يكتشفوا له حلاً، اكتشفوا حلاً للأمراض وللآلام.. وعقاقير.. وأدوية.. والعلاج.. لكن الموت لا.

يقول الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يدع لذي لب فرحاً.

فكل إنسان مهدد بالموت، فالمتنبي أجاد في نظمه ذاك، إلى أن قال:

ولاَ فضلَ فِيهَا للمروءةِ والنَّدى وصَبْرِ الفتَى لَولا لقاءُ شعوبِ

وشعوب: المنية، الموت من أسمائه شعوب، يقول: لو أنه لم يكن موت لما كان هناك خير للفضيلة وللجود وللشجاعة وللذكاء والبراعة، لكان الناس سواسية. لكن لما كان هناك موت وحساب صار الجواد أحسن من البخيل، والشجاع أحسن من الجبان. ثم يصف الدنيا قائلاً:

تـورَّثَهـا الآتِـي تـورُّثَ سـالـبِ وفارقَها الماضِي فراقَ سليبِ

يقول: ابنك يأتي بعدك يتورث، فكأنه سلبك ملكك. والوالد مسكين فهو مسروق، ابنه يأتي إلى الدنيا فيسلبه سلباً.

وهذه الفلسفة عند الشعراء يكثرون منها ولكنهم في الغالب يصدقون؛ لأن الموت هو ساعة الصفر كما يقول الطنطاوي، ساعة الصفر يعني ساعة الموت، يذعن فيها المتكبر ويلين فيها القاسي، ويتواضع فيها الجبار، ويضعف فيها القوي، ويفتقر فيها الغني.. فهي لحظة في الحقيقة تزول بهارج النفس فيها.

حتى إن فرعون الهيلمان.. والقوة.. القائل: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] لما أتت ساعة الصفر قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] انظر كيف حقق؛ لأنه وصل إلى درجة وإلى ساعة وإلى لحظة تنتهي الزخارف والادعاءات والإغراء وطغيا، النفس وجبروت الخاطر.. كل هذا ينتهي، يقول كعب بن زهير:

كلُّ ابنِ أنثىَ وإنْ طالَتْ سلامتُه يوماً علَى آلةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ

يقول: مهما طال عمر الإنسان ومهما عمر وشاد وساد واغتنى وذهب وشمخت نفسه.. فسوف يحملونه على خشب وهي الآلة الحدباء وسيذهب إلى الآخرة، هذه

قصــة الموت. ولذلك فقد وقفت معه؛ لأن المتنبــي وقف معه في بعض أبياته وفي بعض قصصه وهو يتحدث عن الفراق، حتى إنه لما ماتت أخت سيف الدولة وكان مسافراً، كان في العراق، فيقول:

طوى الجزيرةَ حتّى جاءَنِي خبرٌ　　فزعتُ فيهِ بآمالي إلى الكذبِ

ولا يقصــد الجزيــرة العربية، بل بلدة فــي العراق، يقول: قلــت أسأل الله أن يجعلــه كذبــاً، إن شاء الله ليس هذا الخبــر صحيحاً. وهذا مجاملــة ونفاق، يريد أن يجامــل سيف الدولــة يقول: لما ماتت أختكم والله لقــد جاءني من الهم والغم وجاءنــي من الإزعاج، حتى قلت: أســأل الله أن يكون هذا الخبر غير صحيح، لكن انظر إلى الإبداع اللفظي مع هذا الرجل، حتى في مطلع القصيدة يقول:

يَا أختَ خيرِ أخٍ يا بنتَ خيرِ أبِ　　كنايةً بهما عنْ أشرفِ النسبِ

طوى الجزيرةَ حتّى جاءَنِي خبرٌ　　فزعتُ فيهِ بآمالي إلى الكذبِ

حتّى إذا لَمْ يدَعْ لِي صدقُه كذباً　　شرقتُ بالدمعِ حتّى كادَ يشرقُ بِي

الله أكبــر! مــن أين يأتــي بهذه المعاني وهــذه الألفاظ.. وهــذه الإبداعات.. يقــول: والله إني غرقت بالدمع حتى صــار الدمع كأنه يغرق بي أنا، وهذا من غاية ما يفعله.

يقــول أحــد الآباء لابنه: يا بني، إيــاك والشعر الفاتر، إمــا جامد مثلج يكسر العظام، وإلا حار يقطع المصران.

أما الشعر الفاتر فلا حماسة له. وغالب شعر المعاصرين تجده فاتراً.

والصاحــب بن عباد كان عدواً للمتنبي، وكان وزيــراً من أشهر الوزراء، لكنه كان يكــره المتنبي؛ حسداً فقد كانــا متعاصرين، وكان المتنبي لا يمدح إلا الملوك أمــا الوزراء فــلا، وربما مدحهم، لكن رفض أن يمدح الصاحب بــن عباد، فوقع

بينهما ما وقع من خلاف، فقال الصاحب بن عباد لأهل إمرته وولايته: لا تستشهدوا بشعر المتنبي أبداً. فلما ماتت أخت الصاحب بن عباد أتته ستون رسالة، من أمراء الأقاليم ببيتين للمتنبي قالهما في أخت سيف الدولة، وكلما فتح رسالة وإذا في أولها:

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبَر ... فَزِعتُ فيهِ بِآمَالِي إِلَى الْكَذِبِ

حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقُهُ كَذِباً ... شَرِقْتُ بِالدَّمعِ حَتَّى كَادَ يَشْرَقُ بي

قال: هذا رجل أصبح مثل الشمس، أَنْشِدُوا أشعاره.

وكان المتنبي يريد أن يذهب إلى عضد الدولة في شيراز وفي طريقه الصاحب ابن عباد، يمر به، فلا بد من أن يعطيه قذيفة من قصائده ثم يمضي، وكان في الطريق قاضٍ، والمتنبي يريد أن يُعرِّض بالصاحب بن عباد، فيقول:

لَو اسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بُعْرَانَا

فَالْعِيسُ أَعْقَلُ مِنْ قَوْمٍ رَأَيْتُهُمُ ... عَمَا رَآه مِنَ الإِحْسَانِ عُمْيَانَا

عَبْدٌ فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي ... فَلا أُعَاتِبُهُ صَفْحاً وَإِهْوَانَاً

كَذَاكَ قَدْ كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي ... إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا

مُحَسَّد الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِهْ ... يُغْتَابُ سِرّاً وَيُثْنَى فِيهِ إِعْلانَا

فالجواد إذا حضر يمدحه الناس وإذا غاب يغتابونه، وهذا هو السيد. قيل للأحنف بن قيس: من هو السيد؟ قال: مَنْ إذا قدم هابوه وإذا أدبر اغتابوه. والناس لا ترمي إلا الشجر المثمر.

فانظر إلى هذه العظمة التي فيه، وهو فقير وصعلوك، لكنه لديه عبقرية.

يقول: لا يغررك كوني يتيمًا، فأنا قوي ولا أقبل أحداً، وأنا مصمم على ألا

يسبقني أحد. هذه عبقرية نادرة.. وهذا أصبح له وجود في الساحة، ولذلك لا تلغي أحداً من المؤثرين، فإنك لا تستطيع فعل ذلك أبداً؛ لأن له أتباعاً وله شرائح وله مشاهدين وله من يسمع وله من يقرأ وله من يحب، فهذا المتنبي لا بد أن تعترف به، وهذا الذي فعله الصاحب ابن عباد لعقله ولو كان عدواً له.

ومن المعاصرين كان ابن عثيمين، ليس العالم، بل شاعر آخر اسمه محمد ابن عثيمين، يقول:

هوَ الموتُ ما مِنْه ملاذٌ ومهربُ متَى حطَّ ذا عنْ نعشِه ذاكَ يركبُ

يقول: لا تكاد تنتهي الجنازة الأولى، حتى تلحقها أختها، ونظل ننتقل من العمار إلى الدمار، من القصور والدور إلى القبور.. وهكذا.

فالموت وراءك أينما ذهبت، تذهب في السفينة فهو وارءك، وفي الطائرة معك، وفي المكتب، تدخل الغار خلفك، تجلس في العيادة معك، لا يفارقك.

وانظر إلى الأسلوب القرآني الراقي الذي هو أجل من الشعر، وارتفع عن النثر، وعظم عن الأدب، يقول الله جل وعلا في ذلك: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨] إذا فررت من الشيء فأين يكون هذا الشيء؟ يكون وراءك، تفر من الأسد والأسد وراءك، تفر من الثعبان والثعبان يطاردك، فانظر إلى أسلوب القرآن: ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وهو في الحقيقة أمامكم وليس خلفكم، فأنتم تفرون إليه، كما قال القائل: **فرّ مِنْ الموتِ وفي الموتِ وقَع.**

فأنت تفر إلى الموت، قرأت في قصص سليمان بن داود عليه السلام أن ملك الموت نزل في مجلسه، قال لملك الموت: إلى أين تذهب؟ قال: أمرني ربي أن أقبض رجلاً من رعيتك في فلسطين بأرض الهند، وقد بقي على أجله أيام والله أمرني أن أقبض روحه في الهند، وهو معك في فلسطين، فكيف هذا وبينما هو جالس

وإذا برجل أتى ودخل على سليمان وهو هذا الرجل المحكوم عليه بالموت من الله، قال: يا نبي الله، أريد أن تأمر الريح أن تنقلني إلى الهند لغرض لي هناك، فتبسم سليمان وأمر الريح بنقله إلى الهند، كما قال سبحانه عنها: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:١٢] ويركب سليمان والأمراء والعسكر والجنود كلهم على بساط الريح، فإذا أرادت أن تنزل قال: ﴿رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦] يعني: تهدأ شيئاً فشيئاً، حتى تصل المدرجات بهدوء، فقبض روحه بعدما انتقل.

وبالمناسبة مر أحد الشعراء في مصر بقبر الإمام محمد عبده المفسر الكبير غفر الله له، وقال بيتاً جليلاً سبحان الله! وقد كان مر على وفاته أربعون ليلة، فوقف الشاعر وبكى كثيراً، قال لمحمد عبده يخاطبه وهو في القبر مدفون من أربعين ليلة:

لِمَ لا تجيبُ وقَدْ دعوتُ مراراً ... يكفِي سكوتُك أربعينَ نهاراً؟!

يقول: سلمنا.. سألنا عنك.. كيف أخباركم.. يا إمام.. تكلم.. رد علينا التحية.. هذا من الشجن.. هو يعرف أنه لن يرد عليه التحية، لكنه يريد أن يقطع قلبك؛ لأن هذا كان رجلاً مؤثراً مفسراً، وكان مصلحاً، يقول: منذ أربعين يوماً ونحن نمر على قبرك.. ولم ترد علينا السلام مرة واحدة!

حتى المتنبي كما مر معنا يقول:

خرسٌ إذا نودُوا كأنْ لَمْ يعلمُوا ... أنَّ الكلامَ لهُمْ حلالٌ مطلقُ

يقول: نسلم على الملوك والجبابرة والعلماء والكبار يقول: الكلام حلال فلم لا تتكلمون؟! ليس الكلام حراماً، لكنهم لم يستطيعوا، يقول علي بن أبي طالب عندما سلم على القبور: «كيف أخباركم؟ ثم قال: سكتوا والله! ولو نطقوا لقالوا: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]».

فإذا أردت أن تعرف الحياة، فمر بالمقبرة.

يقول إستيفن كوفي: مررت بمقبرة في كلفورنيا، فرأيت قبر رئيس الجمهورية بقبر الفقير، واللاعب المشهور الكبير بقبر اليتيم، كلهم سواء، يقول الشاعر:

أتيتُ القبورَ فنادَيتُها: فأينَ المعظَّمُ والمحتقَرْ؟!
تفانُوا جميعاً فما مخبِرٌ وماتُوا جميعاً وماتَ الخَبَرْ
فيَا سائِلي، عن أناسٍ مضَوا أمَا لكَ فيما مضَى معتبَرْ
تروحُ وتغدُو بناتُ الثَّرَى فتمحُو محاسِنَ تلكَ الصُّوَرْ

القبور من ظاهرها سواء، وفي داخلها وزير.. وحارس عمارة.. ورجل بسيط.. ومجنون.. وقائد الجيش.. كلهم سواء! المسكين.. والمتملق.. وآخر ذكي عبقري فيلسوف.. وآخر أحمق.. لكن القبور سواء.

وكل إنسان له أن يتجهز بصورة ظاهرية، ويحاول أن يجمل هيكله ولباسه، فهذا مطلوب في الإسلام، يقول ﷺ كما في صحيح مسلم: «**إن الله جميل يحب الجمال**» لكن عليك أن تجمل روحك، ما دمت تجمل الهندام والشخصية والهيكل، فلا بد من أن تجمل روحك بالفضيلة.. بالبر.. بالتقوى.. بعمل الصالحات.. بحب الخير للناس.. بالرحمة بعباد الله ﷻ.. بالتواضع.. بحسن الخلق..؛ حتى تكون هناك سمات إسلامية تميزك.

فالمتنبي يجرك في هذا الحديث؛ لأنه يسوقك بحكمته وبإبداعه إلى موضوع، فيستولي على الموضوع نفسه فيكون أحسن ما يقول في الباب، وإلا فقد سبقه شعراء، فأبو ذؤيب الهذلي مات له سبعة أبناء بالطاعون، فسهر وبكى حتى قال:

أمِنَ المنونِ وريبِها تتوجَّعُ؟ والدهرُ ليسَ بمعتب مَنْ يجزعُ
قالتْ أميمةُ ما لجسمِكَ ناحِلٌ منذُ ابتليتَ ومثلُ مالِكَ ينفعُ

أميمة هذه زوجته، تقول: ما لك سهرت وتفجعت! قال: كيف لا أتفجع على أبنائي! سبعة ماتوا بالطاعون في سنة واحدة! حتى يقول:

وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

يقول: إذا جاء الموت فلا تنفع تميمة ولا رقية ولا حرز ولا علاج ولا عقاقير ولا شيء.. لو يأتون بأكبر أطباء العالم، فإنهم لا يستطيعون فعل شيء.

فلذلك ينبغي عليك أن تعرف هذه الحقيقة، لا بد من أن نصل إليها كما ذكرها المتنبي وغيره من الشعراء؛ لأننا نكتب في مجال الأدب، وإلا فقد وعيت نصوصاً كتاباً وسنة.

الكتاب

يقول أبو الطيب المتنبي:

أعزُّ مكانٍ فِي الدُّنَا سرجُ سابحٍ

وخيرُ جليسٍ فِي الزَّمانِ كتابُ

وهـذا مـن قصيدته التي مـن أبياتها الكلام المشهور، يقول:

ولسرٌ منّي موطنٌ لا ينالُـه

نديمٌ ولا يفضِي إليهِ شرابُ

إلى أن يقول:

وفِي النَّفسِ حاجاتٌ وفيكَ فطانةٌ

سُكُوتِي بيانٌ عندهَا وخِطابُ

وهو يخاطب بذلك كافور والشاهد هنا: أنه يقول: (**وخير جليس في الزمان كتاب**)، وهي من الحكم التي سارت عند العلماء والمفكرين والمثقفين وصدقوها، وهي من دقائق ما وصل إليه في حكمته البناءة، فيقول: أحسن من تجالسه الكتاب، وهذا معنى مطروق، لكن يأتي شاعر في حجم المتنبي وفي قامته ويأتي بهذه الحكمة ويهديها للناس فيكون لها وقع خاص؛ لأنه يهتم بالمعرفة ويهتم بالعلوم، حتى يمدح العلماء.. يمدح القضاة.. يمدح الكتاب الذين يهتمون بالعلم والثقافة، يقول لأحد العلماء:

عَلامَةُ العلماءِ واللججِ الذي ... لا ينتهي ولكلِّ لجٍّ ساحلُ
افخرْ فإنَّ الناسَ فيكَ ثلاثةٌ: ... مستعظمٌ أو حاسدٌ أو جاهلُ
وإذا أتتْكَ مذمَّتي مِنْ ناقصٍ ... فهيَ الشهادةُ لي بأنِّي كاملُ

وتجده أيضاً يشيد بالمعرفة وبالكتابة وبالخبرة العلمية، فلما وصل إلى ابن العميد وهو الكاتب المشهور يقول:

بادٍ هواكَ صبرْتَ أم لَمْ تصبرا ... وبكاكَ إذ لَمْ يجرِ دمعُك أو جَرَى

ثم يقول:

مَنْ مخبرُ الأعرابِ أنِّي بعدَهم ... جالستُ جَالِنْيُوسَ والإِسْكندَرا
ودرستُ بطليموسَ دارِسَ كتبِه ... متعلماً متبدياً متحضراً
قطفَ الرجالُ القولَ قبلَ نباتِه ... وقطفتَ أنتَ القولَ لمَّا نوَّرا

الشاهد قوله: أحسن من تجلس معه الكتاب، حتى يقول أمير الشعراء شوقي:

أنا مَنْ بدَّلَ بالكتبِ الصَّحابَا ... لَمْ أجدْ لي وافياً إلاَّ الكِتَابا

وهـذا يحصل للإنسان بعـد تجربة طويلة، فيجد أن الوفـاء في الناس قليل، وأن أحسـن مـا يفعله الإنسان بنفسه أن يصاحب كتابـاً نافعاً مفيداً، وأجل الكتب وأحسنها وأنفعها وأفيدها وأبركها كتاب الله سبحانه وتعالى؛ حتى يقول سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢]، إذا ذكرت الكتب.. إذا ذكرت المصنفات.. إذا ذكـرت المؤلفـات فذلك الكتاب، إذا سمعت بتأليـف علمي، أو بديوان شعري، فأجلّ من ذلك الكتاب، وأشار بالبعد تعظيماً لهذا الكتاب المحكم الذي أنزله على سيد الخلق عليه الصلاة والسلام.

وهناك كتابـان: كتاب وحي مكتوب شرعي وهو القرآن الكريم، وكتاب مفتوح وهـو كتاب الكون فيه حـروف القدرة، قلم القـدرة خط أسطـر الوحدانية وجمل الصمدانية وحروف الإبداع فأنت تقرؤه، حتى يقول إيليا أبو ماضي:

وكـتـابُ الـفـضـاءِ أقـــرأُ فِـيـه ... صـــوراً مـا قـرأتُـهـا فِـي كـتـابِ

لأن فـي الكون علامـات وأحرفاً وأسطـراً وأبياتاً تدلك علـى الواحد الأحد، الزهـرة تشير إلـى عظمة الله.. الورقـة.. اليرقـة.. السناء.. المـاء.. الضياء.. الظلماء.. السماوات.. الأرضون، كلها.

وفِـــي كــلِّ شـــيءٍ لَـــهُ آيـــةٌ ... تـــدلُّ عـلَـى أنَّـــه واحِـــدُ
فَـيَـا عـجـبـاً كـيـفَ يُـعـصَـى الإلــهُ ... أَمْ كـيـفَ يـجـحـدُه الـجـاحِـدُ؟!

نعـود إلى أبي الطيـب المتنبي وهو يمدح الكتاب والمكتبـة، فيقول: حاول أن يكون عندك كتب تعاشرها وتقرؤها وتنفق الوقت فيها.

ابـن عبد البر أمضى في كتـاب الاستذكار والتمهيد ثلاثيـن سنة عند رأسه يحبر فيه، والعجيب أنهم يذكرون عن ابن دريد أن كتاب الجمهرة جلس معه يحبر فيه ويجمعه ستين سنة، يقول:

أنستُ بهِ مِنْ بعدِ ستينَ حِجَّةً فيَا طُولَ شوقِي بعدَه وحنينِي!

لأنه باعه فيما بعد، باع الجمهرة لماذا؟ كانوا فقراء، حتى باع خشباً عنده في البيت؛ ليقوت أهله، يأكل خبزاً هو وأطفاله، بعدما انتهى الخشب باع مطرفته، باع أدوات البيت، ثم باع الفراش، لم يبقَ إلا كتاب الجمهرة جمع فيه ستين سنة تعباً وسهراً وعناء بالجهد والعرق والتضحية والسهر، ثم باعه؛ لكي يطعم أطفاله، ورجع يبكي في البيت وينظم قصائد وهو يبيع، كتب أبيات على الجمهرة يقول:

أنستُ بهِ مِنْ بعدِ ستينَ حِجَّةً فيَا طُولَ شوقِي بعدَه وحنينِي

وما كنتُ أرجُو أنْ أعيشَ بدونهِ ولو خلَّدتْنِي في السُّجونِ دُيونِي

وقد تخرجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ نفائسَ مِنْ ربٍّ بهنَّ ضنينِ

يقول: حاجة الفقر، وهذا البيت لجاهلي اسمه السلمي باع إبلاً حمراء له فلامته زوجته واسمها أم مالك، فقال:

وقد تخرجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ نفائسَ مِنْ ربٍّ بهنَّ ضنينِ

يعني: من القائم عليها؛ لأنه محتاج مع أنه يغليها.

يقولون: إن الصاحب بن عباد جاء فيما بعد، فقرأ هذه الأبيات فبكى بعدما مات المؤلف، والصاحب بن عباد كان أميراً موسراً، فبكى وقال: ليتني أدركت ابن دريد كنت ملأت بيته ذهباً. كان جواداً.

والعجيب أن ابن دريد أديب وشاعر وهو صاحب المقصورة المشهورة التي هي أشهر مقصورة في تاريخ الأدب العربي التي يقول فيها:

يَا ظبيةً أشبهَ شيءٍ بالمهَا ترعَى الخزامَى بينَ أشجارِ النَّقَا

إلى أن وصف الشيب.

واشتعلَ المبيضُ فِي مسودِه مثل اشتعالِ النَّارِ في جزلِ الغَضَا

إلى أن يقول:

والناسُ ألفٌ منهُمُ كواحدٍ ... وواحدٌ كالألفِ إنْ أمرٌ عَنَا

وإنّما المرءُ حديثٌ بعدَه ... فكُنْ حديثاً حسناً لمَنْ وعَى

وكان له زميل وصديق يحسده- فبعض الأصدقاء يحسدون- وهو في ثوب صديق، لكنه عدو، وهو من أقرانه اسمه ابن نفطويه نحوي، فقال:

ابنُ دريدٍ بقرَهْ ... ألّفَ كتابَ الجمهرَهْ

وهوَ كتابُ العينِ ... إلا أنّه قَدْ غيّرَهْ

كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، يقول: إنك سرقت كتاب العين، وهو ليس لك أصلاً، لكنك أدخلت وغيرت، فرد عليه بأبيات، واسم ذاك نفطويه، فإذا قسمت الاسم صار نفط/ويه، وفي آخر القصيدة قال فيه:

أحرقَه اللهُ بنصفِ اسمِه ... وجعلَ الباقِي عويلاً علَيه

وأما سيبويه فإنه ألف الكتاب.

وبالمناسبة فمن العجز الثقافي عند الأمة قولهم: طالب في الثانوي سأله الأستاذ: الكتاب لسيبويه من ألفه؟ قال: الله ورسوله أعلم!! فهذا ورع مظلم، هذا هو الورع المظلم الذي يعيشه هؤلاء، ولذلك تجد أن بعض الناس لا علم عنده ولا ثقافة، لكنه يخرج دائماً ولسان حاله يقول:

أنا ابنُ جلا وطلاعُ الثّنايَا ... متَى أضعِ العمامةَ تعرفُوني

ولكنه لا يحفظ في جانب الشريعة آية الكرسي، وفي جانب الفهم والثقافة لا يعرف ابن رشد ولم يسمع به ولا بابن خلدون، فدل على أنه ينبغي أن نهتم بالكيف، ولا نهتم بالكم على حساب الكيف: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧] إن الدبكة الشعبية والسهرات الضائعة وقصائد المديح على منهج:

(**ألستم خير من ركب المطايا**) لا تخرج لنا عقولاً نيرة، إنما العقل النير يخرج بالعلم النافع، وخيره وأساسه الذي بعث به الرسول عليه الصلاة والسلام، وانظر إلى علمائنا كيف يشق الواحد منهم حياته مع الكتاب، ثم يترك لنا كتاباً يبقى يحبر فيه ثلاثين.. أربعين.. خمسين سنة.

ابن حجر العسقلاني الحافظ خاتمة حفاظ الدنيا في الحديث ألف فتح الباري في ثنتين وثلاثين سنة، شرح فيه صحيح البخاري، هذا الكتاب أعجوبة، مراجعه أكثر من ألف كتاب، حبَّره وقدَّمه للأمة، ويأتي الجيل الجديد يعجز، يعجز بعض الطلبة أن يقرأ عشر صفحات، أن يتبرع بعشر صفحات.

فهذا العمر الذي صرفه فيه ثنتين وثلاثين سنة؛ سهر وتعب وتحقيق وتدقيق، ثم لا يتبرع أحد منا أن يقرأه مجرد قراءة، هل وضعت في مخططك أن تطلع على هذا الكتاب، وأن تقرأ بعض الفوائد فيه؟

والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني على ما فيه، وأنا أعترض على التشويه العقدي في الأغاني وعلى السوء الأدبي، أعني: الأدب المنهجي وعلى المجازفة في النقولات، لكن لا يزال فيه قصائد وفيه قصص وفيه تراث أدبي، حتى ابن خلدون يقول: إنه منتهى ما وصل إليه الأدب، يعني: الأغاني، هذا ألفه في خمسين سنة وقدمه للملوك هدية، أرسل لملك مراقش وسيف الدولة ابن حمدان وأرسل إلى أهل العراق، وأرسل إلى أهل المشرق، أرسل لكل نسخة، لم يكن هناك مطابع، يقول الصاحب بن عباد: كادت كتبي تحمل على اثني عشر جملاً، فلما اقتنيت كتاب الأغاني اكتفيت بهذا الكتاب، وإنما القصد من ذلك أنهم كانوا ذوي همم في التأليف.. همم في القراءة.. همم في التكرار.

انظر إلى ابن المبارك إذا صلى العصر دخل منزله ونشر كتب الحديث، فقال له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، ما تجلس معنا؟ قال: أنا أجلس مع

الرسول ﷺ ومع الصحابة، أنتم تغتابون الناس، قالوا: كيف تجلس مع الرسول ﷺ والصحابة؟! قال: أجلس مع الكتب، كتب العلم، كتب الحديث، فكأنك جلست مع الرسول ﷺ ومع أصحابه.

وكان الإمام أحمد يوصي من سافر: خذ معك كتباً، حتى لا تستوحش. فهم يحفظون أوقاتهم بهذا، لم يكونوا يقلبون من قناة إلى قناة، ولا من فن إلى فن، ولا من موضة إلى موضة، إنما كانوا يجتهدون في طلب الفائدة، ويعلمون أن أعمارهم تذهب سريعاً، وكانوا يعدون الثانية والدقيقة، كما يقول شوقي:

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ لهُ ... إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثوانِ

فارفعْ لنفسِك قبل موتِك ذكرَها ... فالذكرُ للإنسانِ عمرٌ ثانِ

ويقول أبو الطيب الأسطورة في ذلك:

ذكرُ الفتَى عمرُه الثانِي وحاجتُه ... ما قاتَه وفضولُ العيشِ أشغالُ

من قصيدته التي مطلعها:

لا خيلَ عندكَ تهديها ولا مالُ ... فليُسعدِ النطقُ إنْ لم تُسعدِ الحالُ

وفي ذاك البيت الفريد الذي لا يستحقه إلا رب العزة سبحانه وتعالى، يقول:

استوجبَ الحمدَ حتَّى ما لمفتخرٍ ... فِي الحمدِ حاءٌ ولا ميمٌ ولا دالُ

وهذه من سيرتهم في العلم والمعرفة، حتى إن الجاحظ- على ما سبق لنا من كلام أبي الطيب- يرى أنه أفضل جليس، فهو الذي لا يطريك، ولا يؤذيك، ولا يملُّك، ولا يضجرك، ولا يفشي لك سراً.

وصفه بوصف ما سبق له. حتى الجاحظ هو إمام البيان عند العرب على ما فيه من المجازفات في بعض نقولاته، لكنه في صنع الكلمة وفي الجملة لا يؤتى

مثلـه في النثر، حتى يرى أبو حيان التوحيدي أنه بارز في بابه مثلما أن عمر رضي الله عنه بـارز في العدل، والحسن البصري بـارز ظاهر ورمز في الوعظ، فيجعل الجاحظ في هذا الباب.

والجاحـظ كان يقرأ ليـلاً ونهاراً حتى أثمر لنا هذه الثقافة وهذا البيان وهذا الإبداع، وقد بلغ من ولهه بالكتاب أن سقطت عليه مكتبته ومات تحت الكتب.

فلله درُّ هذه الهمم التي تركت خيراً كثيراً، وتركت أدباً، وتركت بياناً، والأفضل من هذا أهل العلم الشرعي النافع، كالشافعي وأحمد وأبي حنيفة ومالك.. وأمثال ذلك غفر الله للجميع.

جلست مع الشيخ الأديب الكبير علي الطنطاوي في مكة، ومعي بعض الفضلاء، فكان يحدثنا عن مسيرة حياته في العلم والمعرفة والقراءة، فقد ذكر في مذكراته أنـه عاش عمر القـراءة والمطالعة، له مـا يقارب السبعين سنة، يقـرأ في كل يوم شيئاً محدداً خمسين صفحة، غير ما يزيد من الاطلاع العام، قال: فانظر السنوات واضربها في الأيام ثم اضربها في خمسين فأثمر عنده موسوعة في العلوم والفنون والأخبار والآداب ومعرفة الأمم، فهذا الذي يفهم عن الله ﷻ رسالته ويفهم كتاب الله ﷻ، يوم يكون أفقه واسعاً، وإنما تأتي هذه القراءة بالكلفة، ثم تصبح ألفة.

لا بـد للإنسـان من أن يرتـب لنفسه جزءاً مـن الوقت يومياً؛ حتـى يستطيع الكتابـة، وعنـد بعض الناس جَلَد في القـراءة، حتى إني قرأت كتاباً اسمه: كيف أصبحـوا عظمـاء للدكتور الكلابي، يتحدث عن عظمة الأمـم وأنهم يصبرون، ثم ذكـر عن واحد ياباني أستاذ ثـورة الصناعة عندهم اسمه أوكايو أوساهيرا عامل بسيط، ذهب يدرس في ألمانيا، قال: وذهبت إلى صاحب ورشة في ألمانيا، فأجرت نفسـي عنده خمس عشرة ساعة في اليوم على وجبة واحدة، وكان يهينني ويذلني، فصبـرت؛ لأني أريد أن أنقل الحضارة الصناعية لليابـان، خمس عشرة ساعة من

العمل.. من العرق.. من الجهد.. من الإذلال، وبعدها اكتشف كيف يصنع المحرك، كيف يتحرك؛ لأن هذا أساس الصناعة، قال: فرسمت المحرك وامتلأت غرفتي التي أسكن فيها بالأوراق، وأخيراً اهتديت وأرسلت لليابان كيف يعمل المحرك، فلما وصل الخبر وجئت إلى أهلي استقبلني إمبراطور اليابان، قال: فصنعت المحرك لهم، فسمع الصوت إمبراطور اليابان، قال: هذه أحسن موسيقى سمعتها في حياتي. وابتدأت انطلاقتهم من تلك المدة، فهؤلاء صبروا، وعلماء الإسلام كانوا أصبر وأصبر، أعني: مضوا إلى الأقاليم وجمعوا الحديث، منهم من كان يمشي حافياً إلى اليمن، إلى خرسان، إلى القاهرة، إلى الشام، إلى بغداد، إلى مكة، إلى المدينة يطلبون العلم.. يطلبون الحديث.. يسهرون.. تتقطع أقدامهم.. تلفحهم الريح.. يجدون المرارة والعنت، وهم كما يقول أبو الطيب وهو يزور ممدوحاً:

جزَى اللهُ المسيرَ إليكَ خيراً وإنْ تركَ المطايَا كالمزادِ

الشيخ أبو غدة ألف كتاب: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل. وإنما نأتي بهذا لبيت أبي الطيب: (**وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كتابُ**).

الذهبي ذكر أن أحد علماء الأندلس كرر في حياته صحيح البخاري سبع مئة مرة، والنيسابوري كرر صحيح مسلم مئة مرة، وابن إدريس ختم القرآن في حياته أربعة آلاف مرة، وابن سينا يقول: قرأت كتاب ما وراء الطبيعة للفارابي أربعين مرة، ما من مرة إلا اكتشف حلاً للغز في الكتاب، والمزني قرأ كتاب الرسالة للإمام الشافعي يقول: قرأته خمس مئة مرة، ما من مرة إلا يظهر لي فائدة لم أكن استفدتها من قبل.

إنها الهمم.. إنه توقد الذهن.. إنها معرفة قيمة الحياة، ولذلك صرفوها في النافع المفيد، فقل لي بربك: مَن مِن الجيل الآن يكرر كتاباً خمس مرات أو عشر مرات؟! بل تجد الواحد منهم عنده مكتبة، لكن كما يقول المثل الهندي: المرعى

أخضر والعنز مريضة، يعني: عندنا آيات بينات.. عندنا وثيقة سماوية.. عندنا قرآن لو خوطب به صخر لتفجع، ولو ألقي على حجر لتصدع، فكيف بإنسان من لحم ودم لا يستفيد من هذا الكتاب الخالد؟! سنة محمد عليه الصلاة والسلام.. الأحاديث النبوية الشريفة.. كلام أهل العلم.. التاريخ.. الأدب.. الثقافات الأخرى التي تؤيد الرسالة والتي فيها الخير؛ لأن «**الحكمة ضالة المؤمن**»، فهل آن لنا أن نعود إلى القراءة، إلى الاستفادة؟! إن العقل إذا لم يقرأ فسوف يبقى صغيراً محدوداً ولن يتطور أبداً، فالأمس كاليوم كالغد ما لم يقرأ؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] فلم يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام ولم يأمره أن يدعو إلا بهذا: الزيادة من العلّ، يقول الأندلسي عن العلم:

هوَ العذبُ المهنَّدُ ليسَ ينبُو ... تصيبُ بهِ مَقاتِلَ مَنْ أردتَا

وكنزٌ لا تخافُ عليهِ لِصاً ... خفيفُ الحملِ يوجدُ حيثُ كنتَا

يزيدُ بكثرةِ الإنفاقِ منْهُ ... وينقصُ إنْ بهِ كفّاً شددْتَا

إلى آخر ما قال، ولذلك اعتنى السلف. فالإمام الشافعي لما سكن هو وأمه في غرفة في مكة، فقير يتيم مات أبوه، الشافعي هذا على مذهبه ما يقارب أربع مئة مليون في العالم الإسلامي، هذا الإمام الأعجوبة الذي مات وعمره ثنتان وخمسون سنة، إنه العبقرية في منتهاها، صفاء الذهن، إنه الطموح كل الطموح، حتى يصف حياته يقول: إنه لا يأبه بالمال فكأنه التراب عنده، أعطاه هارون الرشيد كيساً من الذهب، فوزعه على الفقراء عند القصر ورمى بالكيس، وقال:

أمطري لؤلؤاً سماءَ سرنديبَ ... وفيضي آبارَ تكرورَ تبرَا

أنَا إنْ عشتُ لستُ أعدمُ خبزاً ... وإذا متُّ لستُ أعدمُ قبرَا

همّتي همةُ الملوكِ ونفسي ... نفسُ عزمٍ ترى المذلَّةَ كفْرَا

غفر الله للشافعي، كان يتيماً، ولد في فلسطين في عسقلان، هاجرت به أمه إلى مكة وهو مطَّلبِي يلتقي مع رسول الله ﷺ في الجد الخامس، وسكنوا في غرفة واحدة، مجردة من كل تسهيلات العيش الآن، فكان يأخذ اللخاف والخشب والعظام ويكتب فيها الفوائد والحديث والشروح والأبيات ويجعلها في البيت، وأخذ البيت يضيق، قالت أمه: سنخرج للطريق، وكتبك واللخاف هذه والعظام سوف تحتل البيت، فسمع الكلمة فحفظ كل ما هو مكتوب في الخشب وفي الجرائد وعلى هذه اللخاف والحجارة حفظها، ثم أخرجها إلى الخارج. ويقول عن حفظه:

علمِي معِي حيثُما يممتُ يتبعُنِي ... قلبِي وعاءٌ له لا بطنُ صندوقِ

إنْ كنتُ في البيتِ كانَ العلمُ فيهِ معِي ... أو كنتُ في السوقِ كانَ العلمُ في السوقِ

وصدق، فسبحان الذي أعطاه، تعلم حتى الطب، تعلم الفراسة في اليمن، وتعلم الأدب، يقول: حفظت شعر هذيل، حفظت لثلاثين شاعرًا من هذيل، وبقي يتعلم اللغة في هذيل، فصار أعجوبة الأعاجيب في فهم كتاب الله سبحانه وفهم سنة رسول الله ﷺ، وهو الذي ألف الرسالة وقعّد لأصول الفقه، وردّ على المخالفين، ونصر الإسلام، ودحض شبه الملاحدة، فأسأل الله ﷻ أن ينور ضريحه أن يقدس روحه هو وإخوانه من أهل العلم.

ومقصودي: هذه الهمم الكبرى التي حظي بها أهل العلم، لماذا؟ لأن صاحبنا يقول:

(وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كتابُ).

نأتي إلى أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي، وهو شيخ لابن الجوزي، وكان أعجوبة، ألف كتاب الفنون سبع مئة مجلد، هذا فقط في وقت الراحة، جمع أوراقاً

عند رأسه إذا أراد أن ينام، فالقلم جاهز والأوراق جاهزة مرتبة، فيكتب ما مر به في اليوم من خاطرة، أو فهم آية، أو قراءة، مثل المذكرات اليومية، قال: أفتيت فلاناً، وقال لي فلان، فسبحان الله الذي أعطاه هذا التوثيق، يجمع الأوراق، يسجل الملاحظات، ويسجل ما يفهم من الفنون أو ما يتذكر: في النحو.. في الأدب.. في التفسير.. في الفقه.. في علوم القرآن.. في الشعر.. في القصص.. في الأخبار.. في الاستنباط، فأخرج كتاب الفنون سبع مئة مجلد طبع منها الآن ما يقارب سبع مجلدات، والبقية سوف تطبع إن شاء الله، هذا في وقت الراحة!

يذكرون عنه في سيرته أنه كان يأكل الكعك، وأحياناً يأكل لقمة ويقرأ، فقيل له: لماذا لا تأكل الخبز؟ قال: بين أكل الكعك والخبز مقدار قراءة خمسين آية، فترك هذا علماً كثيراً؛ لأنه عرف قيمة الزمن، قيمة الدقائق والساعات والأيام، فصرفها فيما ينفع؛ ولذلك تركوا أسماءهم، حضروا أسماءهم في ذاكرتنا وفي تاريخنا وفي أيامنا ولياليَنا بجهدهم وبعرقهم، ولذلك العظمة هي قطرات من المعاناة والجهد والعرق والبذل والعطاء، والفشل زخات من التسويف والإحباط والكسل والفشل.

وإذا بدأت في هذا المشروع مشروع الإنتاج والإبداع والعلم والمعرفة والثقافة وصار لك اسم، فسوف يأتي الجبناء والحساد يرمونك بأقواس النقد، فإذا فعلوا ذلك فاعلم أنك قربت أو أنك وصلت إلى بلاط العظمة وأن مدفعية الشرف أخذت تطلق إحدى وعشرين طلقة؛ احتفاء بقدومك، كما يقول أبو الطيب:

وَإذَا أتتْكَ مذمّتي مِنْ ناقصٍ ... فهيَ الشهادةُ لي بأنّي كاملُ

ويقول:

إنّي وإنْ لمتُ حاسدِي ... فما أنكرُ أنّي عقوبةٌ لهمُ

يقول: الله عاقبهم بي؛ بسبب ما عنده من السطوع واللموع وتوهج البيان.

وقفة إجلال لكل أهل العلم والمعرفة الذين عاشوا مع الأدب، وعاشوا مع العلم، وعاشوا مع الكتاب؛ لأن صحابنا يقول:

(وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كتابُ).

فبالكتاب وصلوا إلى ما وصلوا إليه، لكن الكتاب النافع المفيد هو القرآن، وأول كلمة نزلت على رسولنا ﷺ هي ﴿اقْرَأْ..﴾ [العلق:١] فهل آن لنا أن نقرأ؟ أترك إجابة السؤال للجيل.

obeikandl.com

obeikandl.com

العدو الصديق

يقول أبو الطيب المتنبي:

ومِنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أَنْ يرَى
عدواً له مَـا مِنْ صـداقَتِـهِ بُدُّ

يقـول: من شؤم هـذه الحياة الدنيـا الدنيئة أنهـا تلجئ كل حر وصاحب مروءة إلى أن يصادق العـدو؛ لأنـك تجـد عـدواً لا بـد أن تصادقه؛ كي تقضي أمورك وتصلح حالك.

يقول ابن حزم الظاهري عن نفسه، وقد كان أبوه وزيـراً في الأندلس، فأتـى رجل من خصومه الأولين عند أبيه، وكتب خطاباً، كتب فيه:

وَمِنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أنْ يرَى عـدواً لَـهُ مَـا مِـنْ صـداقتِه بُـدُّ

يقصـد والد ابن حزم، والواجب ألا يذكره بهذا؛ لأن معناه أنك عدو لنا، لكنا نصادقـك ونجاملك. فكيف تريد من إنسان خدمة وتريد منه مصلحة وأنت تكتب له هذا الكلام؟!

قال: فقلب أبي البيت وقال:

وَمِنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أنْ يرَى صـديقـاً لَـه مَـا مِـنْ عـداوتِـه بُـدُّ

يقول: كنـت صديقنا، لكن الآن نعاديك؛ لأنك أظهرت لنا العداوة، ولكن هذا البيت للمتنبي من أبيات فائقة انتشرت في الناس وأثنى عليها الأدباء ووقف معها أهل الحكمة موقفاً.

والبيت في مجموعه يدلك على أن الكثرة الكاثرة من الناس- ولو أظهروا لك الصداقة- ليست على بابها وليست على إطلاقها، ولأن المتنبي نفسه يقول:

ومَـنْ عـرفَ الأيَّـامَ معـرفتِي بهَا وبـالنـاسِ روَّى رمحَـه غيـرَ راحـمِ

فليسَ بمرحومٍ إذا ظفِرُوا بـهِ ولا فِي الرَّدى الجارِي عليهِم بآثمِ

وهـذا خطأ، يقول: لو عرفتـم الناس مثلما أعرفهم لـروى أحدكم رمحه من دمائهـم. وهـذا يدعو إلى سفك الـدم، وهذا منهج خاطئ، وهـذه نظرة تشاؤمية وليسـت تصالحيـة، والقـرآن ينهى عن هـذا المسلـك، فيقول سبحانـه وتعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] ويقـول سبحانـه: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤] هـذا هـو المنهج الصحيح، لكننـي أذكر بعض ما يناسب استشهاداته على بيته.

وابـن صمادح أمير أندلسـي جرب الناس في ولايته فـي الإمارة ونظم ثلاثة أبيات من أجمل الأبيات، يقول:

وزهّدني في الناسِ معرفتي بهمْ   وطولُ اختباري صاحباً بعدَ صاحبِ
فلَمْ تُرِني خلّاً تسرُّني   مباديه إلا ساءني في العواقبِ
ولا قلتُ أرجُوه لكشفِ ملمَّةٍ   منَ الدهرِ إلا كان إحْدى النوائبِ

أي: صار مصيبة ثانية. فهو يقول هذا الكلام بعد تجربة.

حتى إن امرأ القيس يقول:

أرَى أمَّ عمرٍو دمعُها قَدْ تحدَّرا   بكاءً علَى عمرٍو وما كانَ أصبرَا
بكَى صاحبي لمَّا رأَى الدربَ دونَه   وأيقنَ أنَّا لاحقانِ بقيصرَا
فقلتُ لهُ: لا تبكِ عينكَ إنَّما   نحاولُ ملكاً أو نموتُ فنُعذَرا
فللهِ دهْرِي ما أصاحِبُ صاحباً   منَ النَّاسِ إلا خانَني وتغيَّرا

وهـذه طبيعة الناس، حتى يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] ويقول: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦]، فأكثرهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، والقليل النادر هو الذي معك في الحق أو يقف معك في الأزمات.

حتى الحريري صاحب المقامات يقول في مرض الموت يوصي ابنه:

لا تغترِرْ ببني الزَّمانِ ولا تقلْ   عندَ الشدائدِ: لي أخٌ وحميمُ

تقول: لي إخوان وأقارب، بعضهم يأتيك ويقول لك: رقبتي سدادة، وإذا حصل شيء لا تراه، بل تجده يشمت بك. أو تجد آخر يتعشى معك ويشرب الشراب

ويعجبـه. فيقول لك: الدم سـداد. نفديك بأرواحنا، لكـن إذا جد الجد فلا تجده أبداً، ثم يقول لابنه موصياً:

جرّبتُهم فـإذا المعاقرُ عاقرٌ ... والآلُ آلٌ والحميمُ حميمُ

يقـول: جربتهم فإذا العاقر الذي يسمر معـك أول من يعقرك، والآل القرابة مثل الآل وهو السراب الذي تجده في الصحراء، والحميم: الصديق المقرب، تراه كالحميم: الماء في أشد درجات غليانه.

حتى تجد الأحيمر السعدي يقول:

درَى اللهُ أنّي للجليسِ لكارِهٌ ... وتبغِضُهم لِي مقلةٌ وضميرُ

يقول: الله يعلم أني لا أريد أحداً أن يجلس معي، أحب كتابي..

عوَى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوَى ... وصـوّتَ إنسـانٌ فكـدتُ أطِيـرُ

يقول: أنا لا أسأل أحداً شيئاً، وكان ذا نظرة اشتراكية.. حتى إذا أردت شيئاً، فـلا أطلـب إنساناً، بـل أطلب الله الذي خلـق الجمل، وإذا أردت شـاة أخذت من الغنـم؛ لأن الله الذي خلقهـا، هكذا يقول! وهذا خطأ، هـو جاهلي، مجتمع الغابة التي لا تحكمها شريعة، يقول:

وَلَا أسـألُ العبدَ الفقيرَ بعيرَه ... وبعـرانُ ربِّـي فِـي البلادِ كثيرُ

فهـذا البيت من أجمل ما قيل، حتى قال الحجـاج بن يوسف الثقفي الظالم، للشعبـي العالـم الكبيـر: أين أنت يـا شعبي؟ يوم الفتنـة التي بيـن الأشعث وبين الحجـاج وعبد الملـك، وقد كانوا نقموا عليـه، لكنه أتى بالسحـر الحلال والعذر المقبـول، فانطلى عليهم العذر فتركـوا له المجال في نفع الناس، فقال: كنت أيها الأمير في مكان حيث يقول الشاعر:

عوَى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوَى ... وصـوّتَ إنسـانٌ فكـدتُ أطِيـرُ

ولذلك كانوا يحذرون من أن تفتح المجال لكل من هب ودب أو تثق بكل أحد، حتى يقول الحميدي صاحب الجمع بين الصحيحين وهو عالم أندلسي:

لقاءُ الناسِ ليسَ يفيدُ شيئاً ... سوَى الإكثارِ من قيلٍ وقالِ

فأقلِلْ من لقاءِ الناسِ إلاَّ ... لأخذِ العلمِ أو إصلاحِ حالِ

أما أن يبقى الإنسان وكأنه في السوق، كل من لقيه أعطاه من وقته.. أعطاه من جهده.. وذهب معه، وتحدث معه، وأخذ من أخباره.. العمر محسوب، ينبغي على الإنسان أن يعرف من يجالسهم، أو يستفيد منهم، أو يمكن من يبني معهم مشروعاً، أو من يستثمر معهم عملاً نافعاً، أما أناس يضيعون الزمان، ويوصلونك إلى بعض الذنوب والخطايا، ويجرونك إلى ما لا تحمد عقباه، فهم جلساء سوء يجب أن يجتنبوا، ثم إن الحسد في الناس منتشر، حتى إن المتنبي نفسه يقول:

سُوى وجعِ الحُسَّادِ داوٍ فإنَّه ... إذا حلَّ في قلبٍ فليسَ يحولُ

ولا تطمعَنْ مِنْ حاسدٍ في مودَّةٍ ... وإنْ كنتَ تبديها لَهُ وتميلُ

حتى ولو أظهرت له البشاشة والمحبة وتحاول أن تستصلحه، فقلبه لا يستطيع أبداً؛ لأنه التف عليه الحسد وأظلم بالحسد، فهو لا يستطيع أبداً، حتى ولو حاول أن يجاملك، فلن يستمر على هذه المجاملة. يقول الأحوص:

ما أكثرَ الناسَ عندي بَلْ ما أقلَّهم ... اللهُ يعلمُ أنِّي لَمْ أقُلْ فندَا

ما قلت كذباً، ما قلت إلا الحقيقة.

إنِّي لأفتحُ عينِي حينَ أفتحُها ... علَى كثيرٍ ولكنْ لا أرَى أحَدا

حتى في الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام كما في البخاري: «الناسُ كإبلٍ مئةٍ لا تجدُ فيهَا راحلةً» الناس مثل الإبل المئة، قطيع ذود من

الإبل أمامك، لكن لا راحلة تستطيع أن تركبها وتحمل عليها أغراضك، فتجد الناس كثيرة أعدادهم، طوابير وجماعات كثيرة، لكن قلّ أن تجد الرجل الحصيف العاقل المؤمن الصادق المنيب، يقول ابن دريد:

والناسُ ألفٌ منهُمُ كواحدٍ ... وواحدٌ كالألفِ إنْ أمرٌ عنا

فدل على أن الناس لا يُغتر بظاهرهم.

ونعود إلى بيت المتنبي:

ومِنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أنْ يرَى ... عدواً له ما مِنْ صداقتِه بُدُّ

فإن الإنسان في الحياة يبتلى بأشياء، فالمؤمن مبتلى؛ لأن هذه الدار دار مكدرة، حتى لا يصفو فيها أحد، فلا بد أن يمزج حلوها بالمر، وسعدها بالشقاء، وراحتها بالتعب، فهي دار تمزج بين الطيب والخبيث، وبين السعادة والشقاوة، ثم في الآخرة تجمع السعادة والطيب والخير والراحة في الجنة، والشر والخبث والعذاب في النار أعاذنا الله من ذلك، فالمتنبي بعدما عاش وجرب الحياة يقول:

ومن نكد هذه الدار وشؤمها أنا أحياناً نضطر إلى أناس ونعرف أنهم أعداء لنا، لكن لا بد أن نتخذهم أصدقاء؛ لتقوم مصالحنا وتسهل أمورنا؛ حتى إن زهيرًا يقول:

ومَنْ لَم يصانِعْ فِي أمورٍ كثيرةٍ ... يضرَّسْ بأنيابٍ ويوطَأْ بمنسمِ

يقول: إذا لم تدارِ فلن تستطيع أن تقوم بجميع أمورك.. فأحياناً يكون هناك إنسان تافه وحقير، لكنه قد يقف لك وقد يؤذيك، حتى إنه يقول: إن البعوضة تدمي مقلة الأسد.

فابن الجوزي يقول: لا تحتقر أحداً، لا تحاول أن تصنع بينك وبين أحد عداوة؛ لأنه يأتي يوم من الأيام يتربص بك الفرصة، فيوقعك في مشكلة أو داهية دهياء، فحاول أن تبني جسور المودة مع الناس، وإذا أتتك كلمة معادية من عدو، فاجعل

مكانها كلمة لطيفة ولينة، كما هو منهج القرآن: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت:٣٤] يعني: يأتيك أحياناً إنسان هائج مائج يقول: أعرف أنك تتربص بي، وأعرف أنه كذا وكذا. فقل: لا، ليس الأمر كما بلغ، فبيننا وبينك من الوفاء ومن المحبة، اتقِ الله يا أخي، فنحن بيننا جسور مودة، فلا بد من أن تقلل من العداوة وتجتث هذه العداوة ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

يقولون: إن معاوية بن أبي سفيان إنما حكم الرجال بالحلم وبالمنهج اللين والرفق الذي ورثه عن معلم الخير عليه الصلاة والسلام.

فإذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك: لعل لأخي عذراً لا أعلمه.

فقد روي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «**مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فَلْيَقْبَلْ عُذْرَهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَذِبَهُ**».

وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لَا تُلُمْ أَخَاكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْعُذْرُ فِي مِثْلِهِ.

وقال الحسن بن عليٍّ: لو أنّ رجلاً شتمني في أذني هذه واعتذر إليّ في أذني الأخرى لقبلتُ عذرَه.

قال الأحنف: إن اعتذر إليك معتذر فتلقّه بالبشر. وقال الشاعر:

يلومُني الناسُ فيما لو أخبرَهم ... بالعذرِ منّي فيه لَمْ يلُومُوني

وقال آخر:

اقبلْ معاذيرَ مَنْ يأتيكَ مُعْتَذِرًا ... إنْ بَرّ عندكَ فيما قالَ أو فجرَا

فقدْ أطاعكَ مَنْ يرضيكَ ظاهرُه ... وقَدْ أجلّكَ مَنْ يعصيكَ مستترا

واعلم أنه لا مبرّأ من سهوٍ وزللٍ، ولا سليم من نقصٍ أو خللٍ، ومن رام سليمًا من هفوةٍ، والتمس بريئًا من نبوةٍ، فقد تعدّى على الدّهر بشططه، وخادع نفسه بغلطه، وكان من وجود بغيته بعيدًا وصار باقتراحه فردًا وحيدًا.

وقد قالت الحكماء: لا صديق لمن أراد صديقًا لا عيب فيه.

وقيل لأنوشروان: هل من أحدٍ لا عيب فيه؟ قال: من لا موت له، وإذا كان الدّهر لا يوجده ما طلب، ولا ينيله ما أحبّ، وكان الوحيد في النّاس مرفوضًا قصيًّا، والمنقطع عنهم وحشيًّا، لزمه مساعدة زمانه في القضاء، ومياسرة إخوانه في الصّفح والإغضاء.

روي عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال: «**إنّ اللهَ تعالى أمرني بمُداراةِ النّاسِ كما أَمَرني بأداءِ الفرائضِ**».

وقال بعض الأدباء: ثلاث خصالٍ لا تجتمع إلّا في كريمٍ: حسن المحضر واحتمال الزّلّة وقلّة الملال.

قال ابن الرّوميّ:

فعذرُك مبسوطٌ لذنبٍ مقدّمٍ ... ووِدّك مقبولٌ بأهْلٍ ومرْحبِ

ولو بلّغتني عنكَ أذني أقمتُها ... لديّ مقامَ الكاشحِ المتكذّبِ

فلستُ بتقليبِ اللّسانِ مصارمًا ... خليلاً إذا ما القلبُ لَمْ يتقلّبِ

فكأن قول المتنبي السابق إجماع بين الشعراء وأهل الحكمة، حتى يقول بعضهم:

فسدَ النّاسُ والزمانُ جميعاً ... فعلَى النّاسِ والزمانِ السلامُ

فمع من تصلح العلاقة؟ مع الواحد الأحد، حتى إن بعض الشعراء يقول، وبعض الأبيات هي لأبي الطيب، وهي متنازع فيها بين أبي فراس وأبي الطيب المتنبي وبين رابعة العدوية، فيقول مخاطباً رب العزة سبحانه:

فليتكَ تحلُو والحياةُ مريرةٌ ... وليتَك ترضَى والأنامُ غِضَابُ

وليتَ الَّذِي بينِي وبينك عامرٌ ... وبينِي وبينَ العالمِينَ خرابُ

إِذَا صحَّ منكَ الودُّ فالكلُّ هينٌ ... وكلُّ الذِي فوقَ الترابِ ترابُ

فكل من تشاهده الآن فوق التراب هو في الحقيقة تراب، الناس.. الأعيان.. الوزراء.. الأغنياء.. الأثرياء.. العلماء.. المفكرون.. كلهم تراب يمشون على تراب، ما معك إلا الواحد الأحد.

وأنا ضد النظرة التشاؤمية التي غلفها بعض الشعراء على الناس جميعاً، نقول: لا، ما زال الأخيار والأبرار وأهل الوفاء وأهل الأمانة، لكن ابحث عنهم أنت، أما أن تثق بكل أحد وأن تعدّ كل من أتاك ولقيك وسلم عليك صديقاً فهذا ليس بالمنهج الصحيح.

حتى فولتير الكاتب المفكر الفرنسي يقول: اللهم احمني من أصدقائي، أما أعدائي فسوف أتولى أمرهم.

فهم أحياناً ما لا تعلم بهم. كما يقول القائل:

احذَرْ عدوَّك مرَّةً ... واحذَرْ صديقَك ألفَ مرَّةْ

فلربَّما انقلبَ الصديقُ ... فكانَ أعلمَ بالمضرَّةْ

يعرف من أين تلدغ، ويعرف نقاط الضعف فيك ويعرف المداخل، فيضرب ضربته، أما العدو أحياناً فتخفى عليه نقاط الضعف فيك، ولهذا يقول الطغرائي:

وإنَّما رجلُ الدُّنيا وواحدُها ... مَنْ لا يعَولُ فِي الدُّنْيا علَى رجلِ

يقول: إن الرجل الثابت القوي هو الذي لا يعول على أحد، إنما يعتمد بعد الله على نفسه، فهو يكون نفسه، أما أن يكون الإنسان تكلة على الناس ويعتمد عليهم

ولم يدرب نفسه بعلم أو بمهنة أو بحرفة أو بإبداع أو بإنتاج فهذا فاشل، من يعتمد على الناس فاشل، اعتمد على الواحد الأحد، ثم كون نفسك: «**احرصْ علَى ما ينفعُك**» كما قال سيد الخلق ﷺ في صحيح مسلم.

وينبغي أن نعتني بشيء في الصداقة مع الناس، لا نذهب وراء بعض الشعراء الذين ينظرون بنظرة سوداوية للمجتمع، كلهم فسدة.. كلهم خونة.. كلهم غشاشون.. ليس بصحيح، بعض الناس تجده إذا حصل له عداوة يقول: أهل القرار والمسؤولون هؤلاء ظلمة، والتجار يتلاعبون، والدعاة مدلسون ملبسون على الأمة، والعلماء غشاشون. فهذا في الحقيقة مريض، يقول المتنبي:

ومَنْ يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ ... يجدْ مُراً بهِ الماءَ الزُّلالا

إنسان مريض وفمه يسيل صدى وقيحاً ومراً، يشرب ماء عذباً زلالاً، قال: هذا الماء مر، قلنا له: فمك المر، أما الماء فعذب.

يقول البوصيري:

قَدْتنكرُالعينُضوءَالشمسِمنْرمدٍ ... وينكرُ الفمُ طعمَ الماءِ مِنْ سقَمِ

الرمد في العين وليس في الشمس. فالمشكلة أصلاً في نفسية الإنسان، إذا اندثرت صار ينظر إلى الآخرين بما ينظر إلى نفسه، حتى يقول الشمري:

يا حسين خلك من خيار الخويين ... ترى الخوي يا حسين مثل الأمانهْ

ما يستشك يا حسين كود الرديين ... والا ترى الطيب وسيع بطانهْ

يعني: أن الطيب دائماً ينظر للناس ويقول: فيهم خير، لكنه لا يسرف أيضاً في هذه الخيرية ويكون ساذجاً، لكن ينظر بنظرين وباعتدال، يعرف أن هناك خيراً وهناك سوء، وأن هناك أخياراً وهناك أشرار، هذا خلق الله سبحانه وتعالى، ولذلك يقول بشار بن برد:

إذَا أنتَ لمْ تشربْ مِراراً على القَذَى ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفُو مشارِبُه؟!

يقـول: إذا أنت لم تصبر على الزلة وتعفو عن الخطيئة وتصفح فلن تستطيع أن تعايش الناس، فاصبر وجامل.

ومَنْ ذا الذي ترضَى سجَاياه كلُّها كفَى المرءَ نُبْلاً أن تُعدَّ معايبُه

تريـد إنسانـاً كاملاً معصومـاً ليس فيه خطـأ! تريد صديقاً تشتـرط فيه أن يكـون صادقاً.. أميناً.. كريماً.. وفياً.. حافظاً.. تاليـاً لكتاب الله.. باراً بوالديه.. متفانيـاً.. بـذولاً.. نصوحـاً.. لن تجد هـذا، لا يكتمل هذا إلا في النبي ﷺ، فهو المعصوم ﷺ، أما في باقي الناس فتعرف وتنكر.

ولهـذا ينبغي أن تناضـل في الجوانب الحسنة، وإذا غلبـت الجوانب الحسنة علـى الجوانب السيئة فهذا هو الشريف المقـدم، إذا غلبت محاسن الإنسان على مساوئه فهذا المطلوب، أما إذا غلبت مساوئه فاجتنبه، فهذا يقول:

(**كفَى المرءَ نُبْلاً**) يكفيك شرفاً أن يعد النـاس معايبك، يقولون: فيك كذا وكذا.. فمعناه أن لديك محاسن كثيرة، ولذلك ولقلة المساوئ التي فيك عدّها عليك الناس، أما بعض الناس من كثرة مساوئه فيقول الناس: كم تعد وكم تترك؟! ماذا ستأخذ ومـاذا ستبقي؟! تارك للصلاة.. عاق لوالديـه.. بخيل.. جبان.. شرس.. غـدار.. خوان.. نعـوذ بالله من ذلك، فهذا هـو الشرير، والنـاس شهداء الله في أرضـه كما قـال عليه الصلاة والسـلام: «**أنتم شهـداءُ الله في أرضـه**»، لما مروا بالجنـازة وأثنى عليها الناس خيراً قال: «**وجبـت**» يعني: الجنة، وأثنوا على جنازة أخرى شراً فقال: «**وجبت**» يعني: النار.

يقـول النابغة الذبياني في قصيدته البائيـة الماتعة الرائعة التي يخاطب بها النعمان:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمه ... علَى شعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ

فإنْ بلغَ الواشُون عنِّي وشايةً ... لمبلغُكَ الواشِي أغشُّ وأكذبُ

يقول: أبلغك عني الوشاة وهم كذابون وغشاشون. بعد أن قال: (أي الرجال المهذب) أي: من هذا الذي هو سالم من العيوب.

مَنْ ذا الذي ما ساءَ قطْ ... ومَنْ لَهُ الحسنَى فقطْ

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١].

من الذي ما كبا جواده ونبا سيفه؟! من الذي لم يخطئ؟! من الذي ليس فيه عيب؟! الذي ليس فيه عيب هو الله وحده سبحانه وتعالى، الواحد الأحد الذي مدح نفسه قبل أن يمدحه المادحون، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أما الإنسان الذي خلق من الطين ومن الماء المهين فخطّاء.

أبونا خلق من التراب، لذلك لا ينبغي للإنسان أن يفتخر ويشمخ بأنفه، إذا افتخرت ففكر في أصلك وأنه من التراب، ثم من ماء مهين، وبعد ذلك تسحب إلى المقبرة وتجرد من الملابس والساعة والقلم والفترة (الشماغ).. ويسحب ويلف في قطعة قماش، ويسحبونه إلى التراب، ويدخل إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤]، ولذلك يقول الشاعر:

تريدُ مُهذَّباً لا عيبَ فيهِ ... وهَلْ عودٌ يفوحُ بِلا دُخانِ؟!

ضع عود الطيب من أزكى أنواع الطيب، فإنه سيفوح منه دخان، وهذه طبيعة الإنسان، لا بد أن يكون فيه نقص، لا بد أن يكون فيه تقصير في جانب من الجوانب، لا يوجد في العالم أحد مثلاً يكون ذكياً.. أريباً.. داهية.. شجاعاً..

وفياً.. باراً.. مصلياً.. ذاكراً.. هذا لا يكون، حتى العلماء الأجلاء لم يستولوا على كل الفضائل جميعاً، إنما استولى عليها جميعها سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، والله جل وعلا هو الذي جمع له ذلك، فزكى قلبه، وزكى سمعه وبصره، وطهر طريقه، وصحح منهجه، وتولاه وحفظه ورعاه وسدده وعصمه، هذا هو الوحيد عليه الصلاة والسلام. أما البقية فلا بد أن نعترف بأننا بشر.

فلكي لا يصاب الإنسان بإحباط أمام ما يواجه من النقد أو ما يواجه من عداوات لا بد من أن يتسلح بالصبر والثقة بالله ﷻ حتى إن أحد العلماء يقول:

فلَمْ أرَ فيما ساءَني غيرُ شامتٍ ولَمْ أرَ فيما سرَّني غيرُ حاسدِ

يقول: كلما ساءني شيء ما وجدت إلا شامتاً، وكلما سرني ما وجدت إلا حاسداً. ولكن هذا الحكم ليس على إطلاقه ولا يقبل دائماً، هناك أناس إذا عثرت أو ساءك شيء وقفوا وتضامنوا وغضبوا وندموا وتأثروا وبكوا، وهناك أناس أيضاً إذا سرك شيء فرحوا واستبشروا وأحبوا لك الخير، لكن هم يشكون من كثير من الشرائح في المجتمع أنهم يشمتون بالنكبة وأنهم يحسدونك على النعمة.

حتى عروة بن الزبير رضي الله عنه خرج من المدينة، قالوا: «ما لك خرجت؟ قال: مجالسكم لاهية، وأسواقكم لاغية، وما بقي إلا شامت بمصيبة أو حاسد على نعمة».

فغالب الناس على هذه الشاكلة.

ولذلك المتنبي يصل به العمر إلى أن يقول لنا:

(ومِنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ..)

وانظر إلى اختيار الكلمات.. نكد.. أعجوبة هذا الأسطورة الشاعر.. يختار الكلمات مثل نسج الدر، فيؤلف بينها، يختار الحبة اللامعة الغالية الثمينة، فيضعها واسطة العقد.

ما قال: من تعب الدنيا، أو من سأم الدنيا.. أو من ملل الدنيا..

ولـم يقل: على المـرء، بل: على الحـر؛ لأن الحر دائماً فيه صفـات الشهامة والمروءة، ومع ذلك أحياناً يذل ويهان، وأحياناً تجد في الناس من لا يؤبه بهم، وإذا هم يتطاولـون ويشمخون، فتضطر لنكد هذه الدنيا وشؤم هذه الدنيا أن تصانعهم وتظهر لهم الصداقة، وأحياناً تذهب إلى إنسان ليس له قيمة، فلا بد أن تكنيه. كيف حالك يا أبا فلان.. الله يبقيكم لنا، وأنتم ما شاء الله نفع الله بكم الناس جميعاً.. وهو في الحقيقة لم ينفع الله به أحداً، بل هو نكد على العباد، وهو عقوبة على الأمة وعقوبة على العباد والبلاد، لكن لكي تقضي أمورك لا بد من هذه المصانعة.

وخيـر من ذلك كلـه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون:٩٦] بكلمة.. بحركة طيبـة وقـورة.. بتصرف سليم.. حتـى يفهم منك أنك تريـد أن تطفئ الشر منه، ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت:٣٤]، «**ما كانَ الرفقُ فِي شيءٍ إلا زانَه وما نزِعَ مِنْ شيءٍ إلا شانَه**».

الناجح محسود

يقول أبو الطيب المتنبي يمدح كافوراً:

عدوُّك مذمومٌ بكلِّ لسانِ

ولو كانَ مِنْ أعدائِكَ القمرانِ

ولله سرٌّ في علاكَ وإنَّما

كلامُ الورَى ضربٌ من الهَذَيانِ

في قصيدة طويلة شاهقة، يرى الواحدي أنها من أجمل قصائد المتنبي على الإطلاق وأنها من أكثرها مدحاً في كافور، ففي مطلع القصيدة يقول:

(عدوُّكَ مذمومٌ بكلِّ لسانِ) يقول: إن من عاداك يا كافور، يذم من الناس؛ فهو مخطئ؛ لأنه يتجرأ على صاحب مجد وصاحب مكرمات ورجل له مثل قامة كافور. فيذم من كان عدوك حتى لو عاداك القمران: الشمس والقمر، وإنما يقال لهما: القمران تغليباً، مثلما يقال: العمران، لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فهذا من باب التغليب، يقول: لو عاداك الشمس والقمر فهما مذمومان. ثم يقول: إنه سبحانه وتعالى أعطاك هذا الحظ لسرٍّ رآه سبحانه وتعالى فيك.. وهذا من المجاملات الشاعرية والمبالغات. وإن الذين ينالونك من الأعداء إنما يقولون هذيان الكلام الذي لا حقيقة له، وهذا يدلك على أنه ينبغي لصاحب المجد أو المكانة ألا يأبه ولا يعبأ بكلام الحساد ولا بكلام الناس، وقد أكثر الناس في هذا الباب، وخير من ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١] فالكلام الذي يأتي به الحساد إنما هو أذى لا يضر المصلح إذا استمر في مكانته، بل كما يقول أبو تمام:

وإذَا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ ... طُويتْ أتاحَ لها لسانَ حسُودِ

وقصيدة المتنبي هذه جميلة في أبياتها؛ لأن كافورًا قتل قائداً شجاعاً اسمه شبيب، خرج عليه في مصر، وكان شبيب هذا من أشجع الناس، ولكنه لما حضر المعركة أتته نوبة كالصرع، فسقط السيف من يده وفارقه فغلب وانهزم، فانتصر عليه كافور، فأتى المتنبي يمدح كافورًا ويصف هذه الواقعة مع شبيب، قال:

برغمِ شبيبٍ فارقَ السيفَ كفُّه ... وكانَا علَى العِلاَّتِ يَصْطَحبانِ

السيف وشبيب دائماً أخوان شقيقان؛ لأنه لما أتى وصرع في المعركة يقول: أصابته ضربة شمس وهو يقاتل كافورًا، كان من أشجع الناس كالأسد الهصور، لكنه قضاء الله وقدره، فأتته فأصابه كالإغماء وكالصرعة، فسقط السيف من يده، ثم أغمي عليه، فسقط فذبح، قال:

كأنَّ رقابَ الناسِ قالت لسيفِهِ: رفيقُكَ قيسيٌّ وأنتَ يمانِي

لأن شبيباً قيسي والسيف يماني، وقيس واليمن بينهما إشكالات وبينهما عداوات يفترقان ولا يتفقان، وهذا من البلاغة ومن التزويق اللفظي ومن جماليات الأدب.

وهذا البحر الذي ينظم عليه هو من أجمل البحور، حتى ذكر ابن الوزير محمد بن إبراهيم العالم اليمني بيتاً فريداً في العواصم والقواصم لأحد الشعراء على هذا البحر، يقول:

ومَنْ كملَتْ فيهِ النُّهى لا يسرُّه نعيمٌ ولا يرتاعُ للحدثانِ

يقول: إذا كمل عقل الإنسان فإنه بعد ذلك لا يسره النعيم؛ لأنه يعرف أنه سوف ينقضي نعيم الدنيا وكل شيء له نهاية. ولا يتأثر للمصائب التي تقع. فلا السرور يستخفه ولا الفرح يطير به، وأيضاً المصائب لا يجزع منها؛ لأنه أصبح عاقلاً ويعرف الدنيا ومجرباً لها، ليس كالطائشين من الشباب أو خفيفي العقل، فتجدهم إذا أتاهم شيء مفرح فرحوا وطاروا به فرحاً، وتجدهم إذا أتت المصيبة جزعوا.

وهذا البحر قد نظمت عليه قصيدة، منها:

سلا القلبُ عنْ غيدٍ صفَتْ وحِسَانِ وأهملَ ذكرَ المنحنَى وعُمانِ

وما عادَ يلهِيني الصِّبا بأريجِه ولو فاحَ بالرَّيحانِ والنَّفلانِ

وخَطَّ برأسِي الشيبُ لوحةَ عاشقٍ يقولُ: احذرونِي أيُّها الثقلانِ

والشعراء يرتاحون لهذا البحر؛ لأن فيه من الجمال الأخاذ الفاتن الخلاب الذي لا يدركه إلا أهل البيان، حتى إن عروة بن أذينة قال:

جعلتُ لعرافِ اليمامةِ حكمَه وعرافِ نجدٍ إنْ همَا شفيانِي

يعني: من الحب والعشق.

فـوَاللهِ مَـا مِـنْ رقـيـةٍ يعلـمانِـها ... ولا شـربـة إلا بـهـا سـقـيـانـي
فـقـالا: شـفـاكَ اللهُ، واللهِ مـا لـنَـا ... بمكنونِ ما تَحْوِي الضُّلوعُ يدانِ

وللبحتري قصيدة على هذا البحر يقول:

كأنَّ رقيباً منكَ يرعَى مَسامعِي ... وآخـرَ يرعَـى منطقِي وجَنانِي

والقمران كما قلت الشمس والقمر، ويسميان الفرقدين.. حتى يقول عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

وكــلُّ أخٍ مــفــارِقُــه أخُــوه ... لعـمرُو أبـيـكَ حـتَّى الـفَـرْقَـدانِ

يعني: حتى القمر والشمس سوف يتفارقان، وقد صح أنهما يكوران، ثم يرمى بهما في نار جهنم. وقوله السابق:

(وإنَّما كلامُ الورَى ضربٌ من الهَذَيانِ) أن من له مجد ومكانة يسب دائماً.

قيـل: من هو السيـد؟ قال: من إذا غاب اغتابـوه، وإذا حضر مدحوه، أو: إذا حضر هابوه وإذا غاب سبُّوه.

فتجـد الشجاع وصاحـب المنزلة العالية ترك له حسـاداً، إذا غاب وقعوا في عرضـه، فـإذا حضـر قالوا: مرحبـاً.. أهلاً أبا محمـد.. نحن اليـوم مرتاحون.. شرفتنـا.. لأنـه مهيب وله مكانة، ولكن ما إن يغادر حتى يلدغوه بسياط النقد، أما التافه فيقول فيه أحدهم:

وشكوتُ مِنْ ظلمِ الوُشَاةِ ولنْ تجِد ... ذا سُـؤدد إلا أُصِـيبَ بحُسَّدِ
لا زِلـتَ يا سبطَ الكرامِ محسَّداً ... والـتـافـهُ المسكينُ غيرُ مُحَسَّدِ

لأن الصفر لا يؤبه به، يحضر المجلس أو يغيب فالأمر سيان، ليس عنده كرم ولا أخلاق ولا تواضع ولا علم ولا يصلح بين الناس، فهو سواء إن حضر أو غاب، لا

يـدرون به أهو ساكن في القرية أم لا، إن حضر المجلس.. إن سافر.. إن ارتحل.. فهذا صفر، ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل:٢١].

وقـد تعرض الأخيار على طول التاريـخ للسب، حتى إن موسـى عليه السلام كلـم ربه فقال: يـا رب، أسألك أن تكف ألسنة بني إسرائيـل فلا يتكلموا ويسبوني إذا غبـت، قـال الله سبحانـه: يا موسـى، إني خلقتهـم ورزقتهم وإنهـم يسبونني ويشتمونني! ما اتخذت ذلك لنفسي.

وكمـا جاء فـي صحيح البخـاري قال: «يسبنـي ابن آدم وما ينبغـي له ذلك، ويشتمني وما ينبغي له ذلك، أما سبه إياي فإنه يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار كيف أشاء، وأما شتمه إياي فيقول: إن لي صاحبة وولداً، وأنا الله لا إله إلا أنا لم أتخذ صاحبة ولا ولداً؛ لأنه أحد فرد صمد.

فالشاهـد: الواحد الأحد الذي له صفات الكمال والجمال والجلال.. الفرد.. الصمد.. الحـي القيوم.. ويسب من الخليقة الناقصـة المذنبة الجاحدة، إلا من رحم ربك، حتى يقول أحد الشعراء:

وتَرى الكريمَ مُشتَّماً لم يقترِفْ ... شتمَ الرجالِ وعرضُه مَشْتُومُ

فالنـاس يقعون في عرض الكرماء، ولكن الكريم كالنخلـة الباسقة الطويلة السامقـة، التي تطلـع بالتمر وبالرطب، فإذا تناولتهـا بالحجارة ردت عليك رطباً وتمـراً، وهـذا شأن الأخيار علـى منهـج: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٤] وهنـا علم أن الناس إنما يقعون فيمن لـه شهرة، لكن الصحيح أن من كانت محاسنـه أكثر فهو العدل الثقة الثبت؛ وأما من كثر سابوه له وكثرت نقائصه وكثرت معائبه، فهو الذي نزل عن مرتبة العدالة والثقـة، وإلا فـلا يسلـم من العيب أحـد في النـاس، ولكن الذي يجتهـد ويواصل ويستثمـر وقته وماله وجهده في الخيـر، فإنه لا يعدم من الحاسد، وكلام الحاسد

يسقط أصلاً؛ لأنه يتكلم بغير عدل، يقال: أظلم الناس هو الحاسد؛ فإنه يحكم عليك لا لك، ويحكم قبل أن يسمع الدعوى وقبل أن يستمع من الشهود، وإذا ذكرت له فإنه يسرع في قدحك وفي إنزالك من قدرك، ويرفعك الله بسبب نيل الحاسد لك.

ولهذا فهو يسلي كافورًا، ويظهر أن كافورًا بدأ يتعرض لنقد وتجريح وتشهير من الناس، فمثلما يقول حاتم:

وكلمةُ حاسدٍ مِنْ غيرِ جرمٍ سمعتُ فقلتُ مُرّي فانفذيني

وعابُوها عليَّ ولم تعبني ولَمْ يندَ لَها أبَداً جَبيني

فالحاسد أبداً هو عدو النعمة، حتى يقول الشاعر:

هُمْ يحسدُوني علَى موتِي فوا أسفًا حتّى علَى الموتِ لا أخلُو مِنَ الحسدِ

فهو يقول: والله لو أخبرت الناس أني سأموت لحسدوني على الموت، قالوا له: ليس بصحيح. قال أحدهم: رأيت في المنام – وهو لم يرَ في الحقيقة- أن فلاناً الوزير صلب، وأن فلاناً الغني التاجر الثري صلب، وأنني صلبت معهم، فقال الجلوس: أنت تصلب معهم؟! أنت أقل وأذل من أن تصلب مع الوزير ومع الثري، فقال:

هُمْ يحسدُوني علَى موتِي فوا أسفًا حتّى علَى الموتِ لا أخلُو مِنَ الحسدِ

ولذلك فأبو الطيب دائماً يذكرك بهذه ويقول:

سُوَى وجعِ الحسّادِ داوِ فإنّه إذا كانَ فِي قلبٍ فليسَ يحولُ

يقول: حاول أن تداوي كل شيء تستطيع أن تداويه.. فالبخيل قد تشجعه بعض النصوص، تستطيع أن تداوي مثلاً الغضبان بأن ترضيه.. الذي هجرك لأمر يمكن أن يزول عن هجره وقطيعته لك، إلا الحاسد.

ولا تطمعَنْ مِنْ حاسدٍ فِي مودَّةٍ وإنْ كنتَ تبديها لهُ وتُنيلُ

تحتضنه وتعانقه وتدعوه وتكرمه وتهدي له.. ولكنه لا يزداد إلا غياً؛ لأنه يريد شيئاً واحداً وهو أن تزول عنك النعمة.

حتى يقول أحد الشعراء:

أعطيتُ كلَّ الناسِ مِنْ نفسي الرِّضا ... إلا الحسودَ فإنَّه أعياني

ما لي لَه ذنبٌ علي علمتُه ... إلا تتابعَ نعمةِ الرحمنِ

وأبَى فما يُرضيه إلاّ ذِلَّتي ... وذهابَ أموالي وقطعَ لساني

يقول: ليس هناك مصالحة معه؛ لأن الحسود لا يمكن مصالحته، كما يقول القائل:

اصبرْ علَى كيدِ الحسودِ ... فإنَّ صبرَك قاتلُه

فالنارُ تأكلُ نفسَها ... إنْ لم تجِد ما تأكلُه

فهو ظالم في ثوب مظلوم، يحترق هماً وغماً، بعض الناس مركب على الحسد، إذا رأى مالاً لإنسان حسده، إذا رأى ذا علم حسده، إذا رأى فصيحاً.. وإذا رأى رجلاً جميلاً.. وإذا رأى رجلاً مشهوراً.. وإذا مدح الناس إنساناً فهو عدو.. يقول ابن تيمية: بعض الناس كالذباب لا يقع إلا على الجرح.

لا يحب الجوانب المشرقة، يفرح إذا جاءت العثرات، حتى إذا نظر في الأسهم ورأى الأحمر حمد وقال: لك الحمد يا رب، فإذا جاءت وهي خضراء مرتفعة قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فعنده التجار غشاشون.. والعلماء مدلسون.. والدعاة ملبسون.. والمسؤولون ظلمة.. فهو الذي يحب العيوب ويحب الأخطاء، والرجل إنما ينظر دائماً إلى الجوانب المشرقة ولا ينظر إلى الجوانب المظلمة في حياة الناس.

والمتنبي لما قال:

عـدوُّك مَـذمـومٌ بـكلِّ لسـانِ ... ولـو كـانَ مِـنْ أعدائِك القَمَرانِ

ذكرني هذا البيت بقصيدة على البحر والقافية، يقولون: كان ابن الأعرابي النحوي اللغوي المشهور الأديب يدرس في مجلس الحديث، وكان الناس في مسجد كبير، وهناك طلاب في آخر المسجد، طالبان يتكلمان في أثناء الدرس، قال: اسكتا، ثم قال: من أين أنتما؟ قال أحدهما: أنا من الأندلس قدمت بغداد؛ لطلب العلم، يعني: أصبحا صديقين، وقال للآخر: من أين أنت؟ قال: أنا من خراسان، خراسان في آخر المشرق والأندلس في آخر المغرب! قال: قفا واكتبا هذه الأبيات، تناسب المشهد، وكان راوية حافظاً، فقال:

نـزلْـنَـا عـلـى قيـسيَّةٍ يـمـنيَّةٍ ... لها نسبٌ فِي الصالحينَ هجانُ

فقالتْ وألقتْ جانبَ الخدرِ بيننَا ... لأيَّـةِ قـومٍ أم مَـنِ الـرَّجُـلانِ؟

فقلتُ لَهـا: أمَّـا تـميمٌ فأسرتي ... سلمتِ وأمَّـا صاحبي فيمانِي

رفيقانِ شتَّى ألَّـف الـدينُ بينَنا ... وقَـدْ يلتقِي الشتَّى فيجتَمِعانِ

فهو يقول: لقد ألف الإسلام بينكما وصرتم أخوين، وأتى بهذا الشاهد، كيف تألفا وليس بينهما أبوة ولا نسب ولا رضاع، فألف الإسلام بينهما، فأحياناً الدين هو الذي يؤلف، وأحياناً يؤلف بين الناس أشكال ومذاهب، لكن أخوة الإيمان هي أعظم أخوة، حتى يقول أبو تمام:

إنْ يختلفْ مـاءُ الـوصالِ فماؤُنا ... عـذبٌ تـحـدَّرُ مِـنْ غـمـامٍ واحـدِ

أو يـفـترِقْ نـسـبٌ يـؤلِّـفُ بيننَا ... أدبٌ أقـمـنَـاه مـقـامَ الـوالـدِ

يقول: الأدب الذي بيننا صار مثل الأب في النسب، وليته قال: (دين) بدلاً من (أدب).

وبالمناسبة، فقد ألقيت هذه المقطوعة في صنعاء لما قرأت عليهم المقامة اليمانية من المقامات قبل سنوات، ثم طلبوا مني أن أقف وقفات مع بعض شعرائهم، كالزبيري، محمد بن محمود الشاعر المشهور، فإنه خرج من اليمن مع الثورة وذهب إلى إذاعة باكستان وألقى قصيدة أرسلها إلى اليمن، يقول من ضمن أبياتها:

الشاعريّةُ في رواعي سحرها ... أنتَ الذي سويتَها وصنعتَها

أنتَ الذي بسناكَ قَدْ عطَّرْتها ... وأشعتَها بينَ الورَى وأذعتَها

أبعدتني عَنْ أمةٍ أنا صوتُها الـ ... ـعالي فلَو ضيَّعتَني ضيعتَها

ما قالَ قومي آه إلا جئتَني ... وكويتَ أحشائي بها ولسعتَها

عذبتني وصهرتني ليقولَ عنك ... الناسُ: هذي آيةٌ أبدعتَها

وله قصائد أخرى في الحنين، عندما خرج من وطنه، يقول:

مزقيني يا ريحُ ثمَّ انثري ... أشلاءَ جسمي في جوِّ تلكَ المعاني

وزعيني بينَ القدودِ والأغصانِ وصلي ... جيرتي وأحبابي وقصِّي عليهِمْ مادهاني

هَلْ رثاني هزارُها هَلْ بكاني ... ورقُها هل شجاهُ ما قدْ شجاني

ليتَ للروضِ مقلةً فلعلَّ ... الدهرَ يبكيه مثلَما أبكاني

وهذا من جيد شعراء اليمن، وقد جمعت أشهر ما قيل في ثوراتهم وفي حروبهم التي انتشرت بين الناس وبين الجمهور، ومنها قصيدة ذكرها صاحب هجر العلم ومعاقله والأكوع، وذكرتها في بعض المناسبات لما هاجم الإنجليز مدينة عدن واحتلوها ثم أخذوا يضربون الشمال، يريدون احتلال الشمال، فخرج لهم عالم اسمه يحيى بن محمد الإرياني، وهو من أبناء عبد الرحمن الإرياني الذي تولى رئاسة اليمن بعد السلال، المقصود أنه خطبهم خطبة بليغة واستحثهم لمقاتلة

الإنجليز، فلما سمعوا هذه القصيدة قاموا عن بكرة أبيهم، وقاتلوا الإنجليز، حتى هزموهم، كانت بريطانيا تضرب مدن اليمن منها صنعاء، فيخاطبها بالقصيدة القوية ويخاطب الجمهور:

يـا بـريـطـانـيَـا رويْـداً رويْـداً إنَّ بطشَ الإلـهِ كـانَ شـديدًا

إنّ بطشَ الإلـهِ أهـلـكَ فرعونَ وعـاداً مِـنْ قبلِكم وثـمُـودا

لا تظنُّوا هـدمَ الـمدائـنِ يـودِي عـزمَـنـا أو يلـينُ بـأسـاً شـديداً

إن تـبـيـدُوا مـن الـبـيوتِ بطيًا راتِـكـم مـا غَـدا لـديـنـا مَشِيدا

فلنـا فِـي الـجـبـالِ تـلـكَ بيوتٌ صـنعَتْها أجـدادُنـا أنْ تبِيدا

ثم التفت إلى الطيارين في السماء، فقال:

فـالـنزالَ الـنزالَ إن كنتمُ مِمَّنْ لـدى الـحـربِ لا يـخافُ البرُودا

لـتـرَوا مَـنْ يبيتُ منَّا ومـنكُمْ مُـوثَـقـاً عـنـدَ خصمِه مصْفُوداً

(ما خضعنا للترك) يقول: أنتم الإنجليز على غير مذهبنا من الكفار، والترك والدولة العثمانية كانت مسلمة، ومع ذلك لم نخضع للأتراك، بل طردناهم:

مـا خضـعْـنـا لـلـتـركِ مـع قربِهم في الدينِ منَّا فكيفَ نرضَى البعِيدا !

وهُـمْ فِـي الأنـامِ أشـجـعُ جيشاً فاسألُوهم هَلْ صادفُونا قُعُودا

أفـتـرجُـو إنـجْـلـتـرا فِـي بـلادِنـا تـبـاً لـسَـعْـيـهـا أنْ تـبِـيدا

كـذبـتَ والإلـهِ لا كـانَ إلا بـعـدَ إلا تُـبـيـدنـا أو نَـبيـدا

بعدما تسفكُ الدماءُ علَى الأرضِ ونـرمِـي سـهـولَـهـا بـالـنُّـجُـودا

يـا بـنِي قومِـنـا، سـراعـاً إلـى اللهِ فـقـدْ فـازَ مَـنْ يـمُـوتُ شَـهِـيـدا

سـارِعُـوا سـارِعُـوا إلـى جـنَّـةٍ قد فاز من جاءها سعيداً شهيداً

والبسُوا حلَّةً مِنَ الكَفنِ الغالِي وبـيـعُـوا الـحـيـاةَ بَـيْـعـاً مَـجِـيـداً

فخرجـوا وقاتلوا الإنجليـز، وكان معهم الحضراني الأديـب الكبير المشهور الـذي عاش مئة وثلاثين سنة، ومن أبنائه الشاعـر إبراهيم بن أحمد الحضراني وهو رجل موسوعي، وقد زار أحمد هذا المملكة مرات عدة وتوفي فيما بعد، وحضر المعركـة، ثم أخذ بسلاحه البسيط وكانت بعض الطائرات مكشوفة على الطراز القديـم مثـل الداكوتا وغيرهـا، فأرسل الرصاصـة فوقعت في جمجمـة الطيار الإنجليـزي فسقط وسقطت الطائرة، فمدح من جميـع الناس شعراً عربياً وشعراً عاميـاً شعبياً، من ضمن الشعر الشعبي يقـول أحد الشعراء من تهامة يرسل لهذا الحضراني يمجده ويمدحه أنه أسقط الطائرة، يقول:

لك الحمد يا منشي من النوة المطر ورازق جميع الخلق في البر والبحور

يقول المعنى طار في عيني السهر بعد رقدة السمار دارت لي الفكور

(وبالله يا باهي على طلعة القمر)

يقصد الفارس الذي يذهب بالرسالة وبالتبريك وبالتهنئة..

وبالله يا باهي على طلعة القمر على ادهم محجل في الضنك يثني الصخور

تصل سوق شمر ذا على بابهم غفر تنشد على القاضي ووقت الليلى هصور

إذا قلت قاضي عنده اللون والدرر من العلم وانجات المشاكل فهو صبور

من آل كبيشن ذا يعدين في الغور ويعدين في الضيقات عداية الصقور

فيقول: إنه قاضٍ وقد أصاب الطائرة.

وقاضي يصيب الصيد ما يخلف النظر ونمر النمارة عادته ياكل النمور

في قصائد طويلة، لكن هذه من الذكريات؛ لأننا انتقلنا إلى مسألة اليمن.

لأن الأدب أصلاً لا ينبني على مسألة العلم الأكاديمي المفصل على أبواب وفقرات وفصول.. لا، الأدب كالبستان، الأدب أن يكون كما يقول علي الطنطاوي: الدرس فوضى، تذهب ذات اليمين وذات الشمال.. حديث.. قصص.. إبداعات متنوعة، يعني أنه كالحديقة الغناء، زهر.. وفل.. وخمائل.. وعصافير.. وقمري.. وبلابل.. وهكذا.. وإلا فلو حصرناه كدرس الفقه لما سمي أدباً، ولا سمي سمراً.

المتنبي يذكر كلاً بما فيه، فدائماً يذكر سيف الدولة بالشجاعة؛ لأن سيف الدولة بارز الشجاعة، فلذلك ركز أبو الطيب المتنبي على هذا الجانب في سيف الدولة، فيقول مثلاً:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ ... كأنّك في جفنِ الرَّدَى وهوَ نائمُ

تمرُّ بك الأبطالُ كلْمَى هزيمةً ... ووجهُك وضاحٌ وثغرُك باسِمُ

وإذا أتى العلماء فلا يمدحهم بالشجاعة؛ لأن العالم تمدحه بالعلم، بالتحقيق العلمي، بالفهم، بإفادة الناس والنفع، قال:

علامةُ العلماءِ واللججُ الذي ... لا ينتهي ولكلِّ لجٍّ ساحِلُ

افخَرْ فإنَّ الناسَ فيكَ ثلاثةٌ: ... مستعظِمٌ أو حاسِدٌ أو جاهِلُ

وإذَا أتَتْكَ مذمَّتِي مِنْ ناقصٍ ... فهيَ الشَّهادةُ لي بأنِّي كامِلُ

وحين يأتي ابن العميد الكاتب المشهور، لا يمدحه بالشجاعة؛ لأنه كاتب ومن الكتاب المثقفين وصاحب إبداع، فلا ينبغي أن يقول: أنت الذي يقتل الأبطال.. وهو لا يقتل الأبطال ولا يبارز ولا يقاتل.. فمدحه بالأدب والكلمة، قال:

مَنْ مخبرُ الأعرابِ أنِّي بعدَهم ... جالستُ جالينوسَ والإسْكَندَرا

ودرستُ بطليموسَ دارسَ كتبِه ... متعلماً متبدِّياً متحضِّرَاً

قطفَ الرجالُ القولَ قبلَ نباتِه ... وقطفتَ أنتَ القولَ لمَّا نوَّرَا

ويأتـي مثلاً إلى عضد الدولة الملك وهو من أكبر الملوك، وكان جباراً ظلوماً عسوفاً داهيـة مهيباً، يمدحه بالقـوة والتفرد علـى الملوك والتفـرد على زعماء عصره، فقال:

فِدًى لكَ من يقصرُ عن مَدَاكا | فما ملكٌ إذاً إلا فَداكَا
ولو قلْنا فِدَى لك مَنْ يساوِي | دعَونا بالبقاءِ لمَنْ قلاَكَا
أروحُ وقد ختمتُ على فؤادي | بحبِّك أن يحلَّ به سِواكَا
وقدْ حمَّلْتنِي شكراً ثقِيلاً | طويلاً لا أطيقُ له حَرَاكَا
أحاذرُ أن يشقَّ علَى المطايَا | فلا تمشي بنا إلا ابتِرَاكَا
إذَا اشتبكَتْ دموعٌ فِي خدودٍ | تبينَ مَنْ بكَى ممَّنْ تَبَاكَى
إذَا استشفَيْتَ من داءٍ بداءٍ | فأقتلُ ما أعلَّك ما شفَاكَا

فقصدي أنه ينتقل على حسب الأغراض وحسب الممدوح.

ونعود إلى أصل القصيدة؛ لأنه لما قال:

عدوُّكَ مذمومٌ بكلِّ لسانِ | ولو كانَ مِنْ أعدائِك القمرانِ

يقول في آخرها:

قضَى اللهُ يا كافُور، أنَّك أولٌ | وليسَ بقاضٍ أن يَرى لك ثانِ

وهذا خطأ؛ فإنه لم يطلع على قضاء الله وقدره، والله يقضي ما يشاء، والعبد ليس له علم بقضاء الله ﷻ، ومن أخبر هذا العبد الضعيف، فهذا من تجاوزاته، وهذا من جموحه، وهذا من خطئه، وهذا من تعديه وبغيه، فإن الله يقضي ما يشاء ويقدر سبحانه وتعالى، لا غالب لأمره سبحانه وتعالى، ولا رادَّ لقضائه، فإنه فعال لما يريد جل في علاه، لكن هذه الجرأة، بل الله يقضي ما يشاء، وأتى قبل

كافور وبعده من هو خير منه ديانة وإصلاحاً وعملاً ومجداً وعطاءً وبذلاً وشجاعةً، وانظر إلى التناقض، بالأمس يقول هذا الكلام، وفي الغد ينقضه بسب من أفحش السب في كافور، وهذا شأن الذي لا ينطلق من مبدأ ولا من رسوخ علمي ولا من يقين معرفي، وليس عنده رسالة في الحياة ولا قضية، ولكننا نأخذ إبداع المتنبي وعبقريته وحكمه التي قالها، لكن المسالك الخطأ التي نهجها كالغلو في المدح، والغلو في الهجاء، وسرعة التذبذب والتردد، مرة يمدح ومرة يسب، مرة يرضى ومرة يغضب، فإننا لسنا وراء هذه الشخصية القلقة المتقلبة الماردة الثائرة، فشخصيته شخصية عبقري.. ثائر.. متمرد.. غضوب.. مزاجي.. حاد، لكننا نريد أن نقوّم هذا؛ لأن عندنا رسالة ربانية، وسنلتقي مع المتنبي في أحد المجالس من هذا الكتاب، سوف نلتقي معه في محكمة الإنصاف ونقرأ دعاويه، ونقيم البينة على صدق ما قلنا من النقد، ونثبت له ما قال من محاسن ومن حكم، فنحن أمرنا بالعدل، وسوف نحاكمه بالميزان الذي هو ميزان الشريعة، وهذا الذي نطمح إليه ونحن تحت مظلة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

أهل العزم

يقول أبو الطيب المتنبي:

علَى قدرِ أهلِ العزمِ تأتِي العزائمُ

وتأتِي علَى قدرِ الكرامِ المكارمُ

وهـذه من أرفع قصائـده وأجلها عند الأدباء وأهـل النقـد، بـل يجعلونهـا أحيانـاً الأولـى فـي قصائـده، حتى إن المطلع يبهرك، وكان يمدح بها سيف الدولة، من ضمن أبياته الشائقة الرائقة، بل الذائعة الشائعة، بـل الرفيعة البديعة قوله لسيف الدولة، وهو في المعركة لما قاتل الأعداء:

وقفتُ وما فِي الموتِ شكٌّ لواقفِ ... كأنَّك فِي جفنِ الرَّدَى وهوَ نائمُ

تمرُّ بكَ الأبطالُ كلمَى هزيمةً ... ووجهُك وضاحٌ وثغرُك باسمُ

والشاهد من هذا أنه يتكلم عن علو الهمة في أول القصيدة، فيقول: (**علَى قدرِ أهلِ العزمِ تأتِي العزائمُ**): فعلى قدر ما عندك من همة يكون لك من النتائج المرضية؛ لأن همتك أوصلتك إلى مراقي الصعود للمجد.

يقولون: ليست الهدية على قدر من أهديت له، ولكن على قدر المهدي نفسه، فدل على أنه من أراد أن يتبوأ المجد الدنيوي والمجد الأخروي فليأتِ بهمة عالية، وهذا أمر متفق عليه عند جميع العقلاء، وهو كان يشيد في قصائده بهمته، ولكن للأسف أنها انحرفت عما ينبغي أن تكون عليه من الإيمان والعمل الصالح والإصلاح في الناس والفضيلة، انحرفت إلى طلب المجد الدنيوي والعلو في الأرض وطلب المنصب والجاه والشهرة والظهور.. حتى يقول:

أطاعنُ خيلاً مِنْ فوارسِها الدهرُ ... وحيداً وما قولِي كذا ومعِي الصَّبرُ

وأشجعُ منِّي كلَّ يومٍ سلامتِي ... وما ثبتتْ إلا وفِي نفسِها أمرُ

تمررتُ بالآفاتِ حتَّى تركتُها ... تقولُ: أمات الموتُ أم ذعرَ الذعرُ

وأقدمُ إقدامَ الأتِي كأنَّ لِي ... سُوى مهجتِي أو كانَ لِي عندَها وترُ

والأتي هو السيل، فيا لها من همة! إلى آخر ما قال، ثم قال:

وتتركُ فِي الدُّنيا دوياً كأنَّما ... تداولُ سمعَ المرءِ أنملُه العشرُ

الشاهد أن الشعراء نهجوا هذا المنهج من قبل ومن بعد، لكنه تفوق في أنه يأخذ العبارة فيضعها في قالب جميل أخاذ جذاب، ولذلك فاق الشعراءَ بمعانيه وبجمالياته في الجملة، وإلا فبعض مفردات الشعراء قد يغلبونه فيها، لكن في

جملة قصائده هو يغلبهم بلا شك، فصار هو سيد الشعراء وإمبراطور الشعور وملك الشعراء.

والشريف الرضي يقول أيضاً مخاطباً نفسه:

أقسمتُ أنْ أوردَهـا حـرَّةً ... وقاحةً تحتَ غلامٍ وقَاح
إمَّا فتىً نالَ المُنَى فاشتفَى ... أو فارسٌ زارَ الرَّدَى فاسْتَرَاح

الوقاح من لا يستحيي من طلب الشيء حتى يدركه. وقاحة يعني: في جرأة صارمة إلى درجة أنه لا يرده رادّ، وقد نظم بعض المتأخرين عليه قصائد كالشوكاني في نيل الأرب، ونظمت بيتين قلت فيهما:

إذا سألتَ اللهَ فِي كلِّ مَا ... أمَّلتَه نلتَ المُنَى والنَّجَاح
بهمَّةٍ تخرجُ معَ الصَّفَا ... وعزمةٍ ما شابَها قولُ آح

همة من لا يتعب ويقول: آح، من المعركة أو من المجد أو من السهر أو من التعب؛ لأن طريق العلياء محفوف بالمخاطر والأشواك والنكبات، أما طريق الانحراف فهو منحدر، ولذلك فهو سهل.

ولذلك تجد من يسقطون كثيراً، أما الذين يصعدون فإنهم قليل، حتى يقول الصينيون: الجالس على الأرض لا يسقط، بل هو مرتاح، إنما يسقط الذي يذهب إلى القمم أو يصعد الجبال العالية. ومثله مثل الذي يأتي إلى المجد، حتى يقول المتنبي نفسه:

لَا يدركُ المجدَ إلَّا سيدٌ فطنٌ ... لمَا يشقُّ علَى الساداتِ فعَّالُ
لَولَا المشقةُ سادَ الناسُ كلُّهُمُ ... الجودُ يفقرُ والإقدامُ قتَّالُ

فأوصي العقلاء والأدباء والحكماء بأن يكون عندهم همة وثابة، وإلا فالناس متشابهون في اللحم والدم والصور الظاهرية والأجسام، إنما يختلفون في الهمة،

أن يكون عند الواحد همة فترقى به، فتجد بعض الناس يفوق الآلاف المؤلفة من البشر بهمته، وتجد آلاف البشر لا يساوون رجلاً واحداً، كما يقول ابن دريد:

والناسُ ألفٌ منهم كواحدٍ ... وواحدٌ كالألفِ إنْ أمرٌ عَنَا

حتى يقول الشاعر:

فكنْ رجلاً رجلُه في الثَّرَى ... وهمةُ هامتِه في الثُّرَيَّا

أنت جالس على الأرض، لكن اجعل همتك فوق النجوم، حتى إن المتنبي يقول، وانظر إلى كلماته العذبة وتناسقها:

إذَا غامرتَ في شرفٍ مرومٍ ... فلا تقنَعْ بما دونَ النُّجومِ

هذه حرب النجوم عند المتنبي، يقول: دون النجوم لا ترضَ، بل فوق النجوم، يعني: لا يحدك حد، فهو يرى في الدنيا ألا تطلب الشيء ميسراً مسهلاً، حتى إن ابن الجوزي تكلم على الهمة العالية فقال: لو أن النبوة تكتسب كسباً لكان وجب على الناس أن يطلبوها، لكن النبوة هبة من الله موقفة، وختمها برسولنا ﷺ، فلا تؤتى لأحد بعده عليه الصلاة والسلام؛ أي: لو كانت كسباً لكان وجب على الناس أن يطلبوها، لكن عند الناس أمرين: العمل الصالح والعلم النافع، هذا الذي يطلب، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام كما في البخاري: «**مثلُ ما بعثني اللهُ به مِنَ الهُدى والعلمِ**.. » فجعل الهدى العمل الصالح، والعلم النافع.

فهنا يقول: إذا غامرت... أي: ما دمت تدخل في الموضوع، ما دمت تشق طريقك إلى النجاح، ما دمت ستسهر.. فلا تفنِ نفسك على شيء تافه وحقير وبسيط، حتى يقول:

فطعمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ ... كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ

الموت واحد، وسوف يموت الإنسان إما تخمة بأكله، أو يموت شريفاً عابداً أو يموت زاهداً، أو يموت ماجداً، أو يموت شهيداً، أو يموت بسبب مخدرات، فلا بد

من أن يموت، فهو يقول: فاجعلها ميتة شريفة، حتى يقول الحسن البصري رضي الله عنه: لا تجعل لنفسك ثمناً غير الجنة.

يعني: مهما ساوموك فلا تطلب إلا الجنة. ولذلك لام الله أعداءه من الذين زوروا في الكتاب، فقال: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة:٩] الدنيا كلها ثمن قليل كما يقول كثير من المفسرين، فهو يلوم من كان هذا فعله، يقول: اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، مثل: الكهنة.. مثل العرافين.. السحرة.. مثل من يرتشي.. مثل من يرابي.. أخذ ثمناً قليلاً، لو أعطي الدنيا كلها وترك الدين لكان ثمناً قليلاً، ولذلك من وصل حتى في عالم الدنيا فهو من همتهم العالية.

يقول المأمون: أدهى الناس اثنان: الإسكندر المقدوني، نقل الحكم من دولة إلى دولة، يعني إلى دولة اليونان مقدونيا، نقلها من الرومان، وأبو مسلم الخراساني نقل الدولة من بني أمية إلى بني العباس. وأبو مسلم الخراساني أعجمي، كان عمره ثمانية عشر عاماً يتقلب وأمه في البيت، لا ينام إلا قليلاً ثم ينقلب على شقه اليمين ثم على اليسار، عندما ينقلب على اليسار كأنه حية، حتى يأتي الفجر، فتقول أمه: ما تنام؟! فيقول: همة تنطح الثريا، وعزم يدك الجبال، فبعد مدة يكون حرسه الخاص عشرة آلاف مسلح، ويقلب الدولة وعمره ثمانية عشر، وفوق هذا هو أعجمي وليس بعربي، كان يمشي والطوابير أمامه، وخطب مرة وعليه عمامة سوداء، فقام أحدهم يتكلم أمام هذا الذي يسفك الدم مثل الماء، قال: أيها الأمير، لا تلبس السواد، فشعار دولة بني العباس السواد، فقال: حدثنا فلان عن فلان عن أبي الزبير عن جابر: «**أن رسول الله ﷺ دخل عمرة القضية وعمامته سوداء على رأسه**» يا غلام، أعطني رأسه، فقطع رأسه وسقطت الجثة بين الصفوف.

فصاحب الهمة هذا أبو مسلم تقول أمه: لماذا لا تطلب الهمة؟ قال: يمنعني العقل، يقول: أفكر أحياناً لكن العقل يردني، حتى إن المتنبي يقول وهو يمدح

أحد الفاتكين واسمه المجنون، من شجاعته سماه الناس المجنون، إذا دخل في المعركة يطيش عقله فيخبط في الناس خبط عشواء، فيسمونه المجنون، فيمدحه المتنبي، قائلاً:

سمَّاه حاسدُه المجنونَ مِنْ ولهٍ إذَا اختلطْنَ وبعضُ العقلِ عقّالُ

يقول: بعض العقول تمنع صاحبها؛ لأن بعض الناس تراه يحذر. فتقول له: اخطب.. فيقول: والله إني أخشى إذا خطبت أن يبرز لي حساد، ثم يفهمون أني أريد أن أظهر.

فتقول: ألّف كتاباً، قال: أنا لا أعجز عن أن أؤلف كتابًا، لكن افرض أني ألفت كتابًا، ثم وقع فيه أخطاء، ثم رد عليه العلماء، ثم بدّعوني، فسأصير بعد ذلك مبتدعاً، فكل شيء له احتمالات لديه ووساوس، ما يأتي بالمجد إلا جرأة، كما قال:

سمَّاه حاسدُه المجنونَ مِنْ ولهٍ إذَا اختلطْنَ وبعضُ العقلِ عقّالُ

يقول: بعض العقل يقيِّدك مرة إلى أن يجعلك لا تستطيع أن تتصرف، العقل الكريم السديد هو الذي يجعلك جريئاً بحكمة.

ويقول آخر:

هِمةٌ تنطحُ الثريَّا وعزمٌ نبويٌّ يزعزعُ الأجْبَالا

لماذا قال نبوي؟ لأن أرفع الناس همة هو محمد ﷺ، همة عظيمة، حتى إنه يعلمنا في الدعاء في قوله للصحابة والمؤمنين من أتباعه ﷺ: «**إذا سألتم اللهَ الجنةَ فاسألُوه الفردوسَ**» يعني: حتى في الدعاء لا ترضَ إلا بالفردوس، «فإنها أعلى الجنة ووسط الجنة، وسقفها عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنان» فلا تقل: اللهم، أدخلني الجنة وفقط. لا، قل: اللهم، إني أسألك الفردوس الأعلى من الجنة، حتى النبي ﷺ وهو في سكرات الموت قال: «**بلِ الرفيقَ الأعلَى بلِ**

الرفيقَ الأعلَى» ما هذه الهمة! سبحان الذي أعطاه، الدنيا لا تساوي عنده شيئاً، جبال الذهب، جبال الفضة.. الغنائم.. الدراهم.. الجيوش.. الدول.. لا تساوي شيئاً، أرفع الناس همة، لحقه الأعراب بعدما انتصر ﷺ في حنين وحصل على سبعة آلاف رأس من الإبل وأربعة وعشرين ألف رأس من الغنم، وحصل على ذهب وفضة وغنائم وسبايا فأخذ يقسمها، خذ يا فلان.. مسلمة الفتح أسلموا الآن، قال: خذ مئة ناقة، قال آخر أعطني: قال تنظر الغنم التي بين جبلين، خذها لك، قال آخر.. قال خذ مئة ناقة، وقال لآخر: خذ أنت ألف شاة، فتعلق رداء النبي ﷺ والأعراب يطاردونه. وهو ﷺ لم يأخذ شاة ولا رغيفاً من الخبز، ولا أخذ ثوباً، قال: «**فكوا علي ردائي، والذي نفسي بيده لو كان مثل جبال تهامة ذهباً وفضة لوزعتها، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً**» عليه الصلاة والسلام، ثم يذهب من الدنيا ولم يأخذ شيئاً، ولا أبقى شيئاً، ولا ورث شيئاً بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام، في غرفة من الطين.

كفاكَ عَنْ كلِّ قصرٍ شاهقٍ عمدٌ ... بيتٌ منَ الطينِ أو كهفٍ منَ العَلَمِ

تبنِي الفضائلَ أبراجاً مشيدةً ... نصبَ الخيامِ التِي مِن أروعِ الخيمِ

فصلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، وصلى الله وسلم عليه ما غفل عن ذكره الغافلون.

فنحن ما زلنا في ظلال بيت أبي الطيب وفي سياقه:

علَى قدرِ أهلِ العزمِ تأتِي العزائمُ ... وتأتِي علَى قدرِ الكرامِ المكارمُ

وهو في بيت آخر من قصيدة أخرى يقول:

وإذَا كانتِ النُّفوسُ كِبَاراً ... تعبَتْ فِي مرادِها الأجْسَامُ

إذا كانت النفس كبيرة وشريفة ولها مطالب عالية من العمل الصالح والإيمان والعلم والمعرفة والمروءة والخصال الجميلة.. ثناء حسن في الناس.. وسيرة

جميلة يتعب جسمه؛ لأن هذه الهمة تحتاج إلى تعب، وتحتاج إلى حضور للصلاة.. ولحفظ القرآن.. وإلى طلب العلم.. وإلى بذل الخير في الناس.. وإلى الإصلاح فيما بينهم.. وإلى التصدر بالفضيلة.. وإلى نشر المعرفة.. وإلى التعلم والتعليم.. فيتعب جسمه، أما الخامل الساقط التافه فليس يهمه شيء، قال عنهم سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤]، ويقول الشاعر:

لا بأسَ بالقومِ مِنْ ضخمٍ ومِنْ عظمِ ... جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافيرِ

فهذا مثل الذي ليس عنده همة وليس عنده نفس كبيرة. فهو دائماً ينبه في قصائده على الهمة العالية، لكن ليته صرفها في الأحسن والأجمل، إنما تهالك المسكين، حتى إن ابن الجوزي العالم الرباني الواعظ الكبير في صيد الخاطر يرثي للمتنبي، يقول: بحثت عن همته وإذا الرجل طامح بهمته وقتل نفسه، ثم بحثت عنه فإذا به يريد إمرة أو منصباً.. يريد دنياً.. يريد ذهباً.. ثم ماذا؟! من ملك إلى ملك، من كافور إلى سيف الدولة إلى عضد الدولة إلى ابن العميد إلى فلان.. كله في سبيل هذه الدنيا، قال: فنظرت إلى همته، فإذا هي أرقى وأعظم وأجل -يعني نفسه- لأني أطلب العلم النافع وأريد العمل الصالح وأريد أن أصلح قلبي وقلوب الناس ونحو ذلك، وصدق ابن الجوزي، فلا مقارنة بين ابن الجوزي العالم الرباني الموسوعي الكبير، وبين المتنبي اللوذعي العبقري الشاعري الأعجوبة، ولكنه صرفها للدنيا ولجاه الدنيا وشهرة الدنيا، فكما يقول الأول:

ألا بلَّغَ اللهُ الحِمَى مَنْ يريدُه ... وبلَّغ أكنافَ الحِمَى مَنْ يريدُها

كما يقول سبحانه: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢] ويقول القفال الشاشي:

اطلُبْ ولا تضجَرْ مِنْ مطلبٍ ... فآفةُ الطالبِ أنْ يضجَرا

يعني: إذا أردت مطلباً عالياً عظيماً فاطلب، والموت أن تضجر من المطلب، استمر في عمل دنيوي صالح مفيد، في حرفة.. في مهنة.. في إنتاج.. في عمل.. في فن علمي..

أَمَا تَرَى الحبلَ بطُولِ المدَى　　　علَى صليبِ الصخرِ قَدْ أثَّرا

الحبال التي في السواني التي تخرج الماء من الآبار هي جلد، فيأتي هذا الحبل من الجلد على الصخر، لكثرة ما يذهب ويأتي أخذ له طريقاً وأخدوداً في الصخر، وكذلك الطالب والمجتهد والباذل والمضحي والمثابر سوف يشق طريقه إلى المجد لا محالة إذا استمر وإذا صبر، حتى إن أحد العباد يقول لغلامه في الليل، وقد كان يصلي فقال:

طال الليل علينا، قال:

طاول بها الليل ضن ما الليل أو جنحا　　　وما طل الجفن جاد الجفن أو سمحا

فإن تشكت فعلمها المجرة من　　　ضوء الصباح وعدها بالرواح ضحى

فعند الصباح يحمد القوم السرى؛ إذا طلع الفجر تذكر أحدنا أنه قام البارحة وصلى حزبه من القرآن، وتنفل وبكى ودعا في السحر وأرسل سهام الدعاء وفتح عليه. ففي الضحى لا يحس للتعب بمعنى ولا طعم، أما من ينام ويصبح جيفة فيأتي في الصباح، فأين لذة النوم التي ذهبت منه؟ وأين الخمول الذي عاشه؟ وأين الكسل الذي قدمه وآثره؟ فلذلك من يتعب سوف يجني تعبه ثمراً من الثناء الحسن والأجر والثواب عند الله، والذي يكسل عن الصالحات سوف يجنيه ندامة وخيبة وحسرة، حتى يوم العرض الأكبر على الله.

انظر إلى امرئ القيس وهو جاهلي، ويطلب دم أبيه من بني أسد الذين قتلوا والده وذهب إلى قيصر يريد أن ينتصر له، كما يذهب الواحد منا الآن إلى أمريكا؛ ليستعين بها على عدو، فذهب.. يقول:

وَلَوْ أنَّما أسعَى لأدنَى معيشةٍ ... كفانِي-ولم أطلبْ-قليلٌ منَ المالِ
ولكِنَّني أسعَى لمجدٍ مؤثَّلٍ ... وقَدْ يدركُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالِي

يقول: أسعى لمجد أبي؛ لأن أباه كان ملكاً في كندة، فقتله بنو أسد في نجد وكان أصلهم من اليمن من حضرموت، فلما أتاه الخبر كان يشرب الخمر، فقال: اليوم خمر وغداً أمر، وقال: أما أبي فما أنصفني، ضيعني صغيراً وحمّلني دمه كبيراً، فأراد أن يستنجد بالعرب فما وجد أحداً، فذهب برجل معه صديق اسمه عمرو بن قميئة، فبكت أم عمرو؛ لأنه سيسافر معه إلى قيصر الروم، وهذا السفر طويل، فقال:

أرَى أمَّ عمرٍو دمعُها قَدْ تحدَّرا ... بكاءً علَى عمرٍو وما كانَ أصبرَا
بكَى صاحبِي لمَّا رأَى الدربَ دونَنا ... وأيقَنَ أنَّا لاحقانِ بقيصرَا
فقلتُ لَه: لا تبكِ عيناكَ إنَّما ... نحاولُ ملكاً أو نموتُ فنعذَرا

يعني: إما أن نحصل على ملك أو نموت شرفاء.

كما يقول العامي: يخرج الفارس، إما ذاق موت الشرف والا سلم.

فإما أن يعيش الإنسان سعيداً منعماً في الخير والثناء الحسن، وإلا فليمت ليلقى ربه سبحانه وتعالى أحسن من حياة المهانة.

لكن الشاهد: إنك عندما تسمع امرأ القيس تقول: سبحان الله! ما هذا المجد وهذا الإصلاح؟ وهو جاهلي.. سفك دم.. وسرقات.. ونهب.. وثارات.. واغتيالات.. ونحو ذلك.

فلما جاء الإسلام أخبرنا ﷺ كيف تكون الهمة العالية، كيف يكون الطريق إلى المجد الباقي عند الواحد الأحد، كما جاء في القرآن: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ

﴿يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر:٣٧] ويخبرنا سبحانه وتعالى بالمسارعة، ليست كمسارعة امرئ القيس إلى الخمر والضياع وسلب القبائل وسفك الدماء والسرقات، وإنما قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران:١٣٣]، كما قال ﷺ: «**بادروا بالأعمال سبعاً**»، «**اغتنم خمساً قبل خمس**» هذا منطق الوحي كتاباً وسنة، أن تبادر إلى معالي الأمور في الصف الأول في المسجد:

مَنْ لِي بِمثلِ سيرِك المدلَّلِ ... تمشِي رُوَيداً وتجِي في الأوَّلِ

قراءة القرآن.. كثرة الذكر.. عمل الصالحات.. الصدقة.. الإصلاح بين الناس.. بر الوالدين.. الرحمة بعباد الله ﷻ.. إيصال النفع إليهم.. كف الأذى عنهم إذا لم تستطع أن تفعل شيئاً.. هذه هي معالي الأمور التي بعث بها عليه الصلاة والسلام. فإن الله سبحانه وتعالى أمر بمعالي الأمور وكره سفسافها وحرم ذلك.

حتى المتنبي يلوم من ليس عندهم همم، وهو يقصد همم الدنيا، قال:

وفِي الناسِ مَنْ يرضَى بميسورِ عيشِه ... ومركوبه رجلاه والثوبُ جلدُه

وَلَكِنَّ قلباً بَينَ جَنبَيَّ مالَهُ ... مَدىً يَنتَهي بِي فِي مُرادٍ أَحُدُّهُ

يقول: قلبي هذا ليس له مراد يحد أبداً، همته عالية ووسيعة وفسيحة وآفاقه مرتفعة.

أحاولُ أنْ أكسَى ثياباً تشغُه ... فيختارُ أَنْ يكسَى دروعاً تهدُّه

له حكم في هذه القصيدة، حتى علم الناس البخل وهو يريد أن يعلمهم الحكمة، قال:

فلا مجدَ فِي الدُّنيا لمَنْ قلّ مالُهُ ... ولا مالَ فِي الدُّنيا لمَنْ قلّ مجدُه

فلا ينحلِلْ فِي المجدِ مالُكَ كلُّه فينحلَّ مجداً كانَ بالمالِ عقدُه

ودبِرْه تدبيرَ الذِي المجدُ زندُه إذا قاتلَ الأعداءَ والمالُ مجدُه

وهو كان من أبخل الناس، جمعها ثم ذهب وتركها، جمع أكياساً وقناطير مقنطرة من الملوك ومدحهم، ثم ذهب مقتولاً في صحراء بين خراسان وبين بغداد، ولو كان أنفقها وبنى بها مساجد أو حفر بها آباراً لكان أفضل له.

فيقول عليه الصلاة والسلام: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس**» وأعود إلى همته ﷺ. ماتت أمه وهي راجعة إلى مكة، فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول ذلك الفراش حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام يجلس عليه فيأخذه أعمامه؛ ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا بني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع.

فلما شرف الله ﷻ نبيه ﷺ بالرسالة وأتى في حنين بعد النبوة وقاتل هوازن ضاقت عليه الأرض بما رحبت هو، والصحابة، وجاء جيش هوازن نحو عشرة آلاف، وجاء الرمي من الجبال، ففر كثير من الصحابة، فرت بهم خيولهم، جاء رمي السهام عليهم مثل السحاب، فضاق المكان، ولكن النبي ﷺ لم يفر هو وقلة من الصحابة، أما البقية ففروا، قال: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**».

حتى إنه لما أراد العرب أن يباركوا لسيف بن ذي يزن، ملك العرب ملك أهل اليمن، سيف بن ذي يزن طرد الأحابيش، الذين احتلوا اليمن، فأتى فجمع القبائل العربية وصدم الأحابيش وأجلاهم من اليمن، فاجتمعت القبائل وقالوا: نريد أن نذهب ونبارك لسيف بن ذي يزن في قصر غمدان، وقصر غمدان قصر

مشهور في صنعاء، وكان الملك فيه، قالوا: نختار عشرة من سادات العرب وقبائل الجزيرة كلها، فاختاروا سيدهم عبد المطلب، وهذا قبل بعثة النبي ﷺ، قالوا: نريد سيداً ليس في السادات مثله، قالوا: عبد المطلب، قالوا: وشاعر لا يعدله في الشعراء، قالوا: أمية بن أبي الصلت في الطائف من ثقيف، قالوا: وخطيب، قالوا: عمرو بن الأهتم، قالوا: وشريفهم الذي يصلح بين الناس، قالوا: حاجب بن زرارة، فذهبوا، فقدموا عليه صنعاء، فإذا هو في رأس غمدان الذى ذكره أمية بن أبى الصلت في قوله:

فاشربْ هنيئًا عليك التاجُ مرتفعًا ... في رأسِ غمدانَ دارًا مِنْك مِحْلالا

واشربْ هنيئًا فقَدْ شالَتْ نعامتُهم ... وأشبلَ اليومَ في بردَيْك إشْبالا

تلكَ المكارمُ لا قعبانَ مِنْ لبنٍ ... شِيبَا بماءٍ فعَادَا بعدُ أبْوالا

والملك متضمخ بالعبير يلصف وبيص المسك في مفرق رأسه، وعليه بردان أخضران مرتدياً بأحدهما مؤتزراً بالآخر، سيفه بين يديه، وعن يمينه وعن شماله الملوك.

فدخل عليه الآذن، فأخبره بمكانهم، فأذن لهم، فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام، فقال له: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنّا لك.

فقال له عبد المطلب: إن الله قد أحلك أيها الملك، محلاً رفيعاً صعباً منيعاً، شامخاً باذخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته وعزت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه، في أكرم موطن وأطيب معدن، فأنت- أبيت اللعن- ملك العرب، وربيعها الذي تخصب به البلاد، ورأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد. وسلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف. فلن يخمل من هم سلفه ولن يهلك من أنت خلفه، ونحن أيها الملك، أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجك من كشف الكرب الذي قد فدحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة.

قال: وأيهم أنت أيها المتكلم؟

قال: أنا عبد المطلب بن هاشم.

قال: ابن أختنا؟ قال: نعم.

قال: ادنُ.

فأدناه، ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال: مرحباً وأهلاً، وناقةً ورحلاً، ومستناخاً سهلاً، وملكاً ربحلاً يعطي عطاء جزلاً.

قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فأنتم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم.

ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه، ولا يأذن لهم بالانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال: يا عبد المطلب، إني مفضٍ إليك من سر علمي ما لو يكون غيرك لم أبحْ به.

ولكني رأيتك معدنه فأطلعتك عليه، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره.

إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اختزناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة.

فقال عبد المطلب: أيها الملك، مثلك سر وبر، فما هو، فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمر؟ قال: إذا ولد بتهامة غلام به علامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أبيت اللعن، لقد أُبت بخير ما آب به وافد، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما أزداد به سروراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد، واسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، ولدناه مراراً والله باعثه جهاراً، وجاعل له منا أنصاراً، يعز بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان ويخمد النيران، يعبد الرحمن ويدحر الشيطان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطلب: أيها الملك- عز جدك، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك، فهذا نجاري، فهل الملك سار لي بإفصاح، فقد أوضح لي بعض الإيضاح.

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجب والعلامات على النصب إنك يا عبد المطلب، لجده غير كذب.

فخرّ عبد المطلب ساجداً، فقال: ارفع رأسك، ثلج صدرك، وعلا أمرك، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك؟ فقال: أيها الملك، كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقاً، فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سميته محمداً، فمات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه.

قال ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت، فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود، فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطوِ ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة، فيطلبون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، فهم فاعلون أو أبناؤهم، ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مملكته، فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن بيثرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره، ولولا أني أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت

على حداثة سنه أمره ولاوطأت أسنان العرب عقبه، ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك.

قال: ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء وبمئة من الإبل وحلتين من البرود وبخمسة أرطال من الذهب وعشرة أرطال فضة وكرش مملوء عنبراً.

وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له: إذا حال الحول فائتني، فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول.

فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول: يا معشر قريش، لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كثر؛ فإنه إلى نفاد، ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبي من بعدي ذكره وفخره وشرفه.

فإذا قيل له: متى ذلك؟ قال: سيعلم، ولو بعد حين.

وفي ذلك يقول أمية بن عبد شمس:

جلبْنَا الصنحَ نحقبُه المطَايا ... علَى أكوارِ أجمالٍ ونُوقِ
مقلفةً مراتعُها تعالَى ... إلى صنعاءَ مِنْ فجٍّ عميقِ
تؤمُّ بنا ابْنَ ذِي يزنٍ وتفري ... بذاتِ بطونِها ذمَّ الطريقِ
وترعَى مِنْ مخايلِه بُرُوقاً ... مواصلةَ الوميضِ إلَى بروقِ
فلمَّا واصلَتْ صنعاءَ حلَّتْ ... بدارِ الملكِ والحسبِ العريقِ

فهذا سيد الخلق عليه الصلاة والسلام عبرة لكل معتبر بعُلوّ الهمة.

شمس الشعر

يقول أبو الطيب المتنبي:

وكيفَ يصحُّ فِي الأذهانِ شيءٌ

إذَا احتاجَ النهارُ إلَى دليلِ

معنى الأبيات: كيف تصح الحقائق في أذهان بعض الناس إذا أنكرت الأدلة إلى درجة أن تقول: هذا نهار، فيقال: ليس هذا بنهار، اضرب لي دليلاً، أو أعطني برهاناً على أنه نهار، فما دامت الحقائق المعلومة تنكر عند بعض الناس إذاً، فلن تصح حقيقة، تلغى الأدلة ولا يبقى هناك دليل للمحاجة، وعليك أن تقطع الجدل مع من هذا شيمته.

وعلى ذكر النهار فإن له أبياتاً في النهار، وفي الشمس على وجه الخصوص، حتى إن مساحة الشمس في شعره كثيرة، فهو يقول:

رأتْ وجهَ مَنْ أهوَى بليلٍ العواذلِ فقُلنا: نرى شَمْساً وما طلعَ الشمسُ

يقـول: إن عواذلي رأين وجه محبوبي، فلما رأين هذا الوجه المنير قلن: نرى الشمس، لكن الفجر لم يطلع، فكيف نرى الشمس في الليل؟!

وله تجرؤ في ضرب الأمثلة إلى درجة أنه أحسن كثيراً، وانتُقِد كثيراً من بعض النقاد، حتى قال مرة:

نثَرتْ ثلاثَ ذوائبٍ مِنْ شعرِها فِي ليلةٍ فأرَتْ ليالِيَ أرْبعَا

واستقبلَتْ بدرَ السماءِ بوَجْهِها فأرتنِيَ القمرينِ فِي وقتٍ معًا

وهـذا من تشبيهاته ومـن أبياته الجميلة، وهذان البيتان فـي ألف ليلة وليلة، يقـول: إنها قيلت فـي الجاهلية، مع أنها مـن المتنبي في عهـد الإسلام. حتى إن الشمـس لشهرتها وبهائها عبدت مـن دون الله ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت:٣٧] وإن الهدهـد أنكـر على بلقيس وأهل سبأ أنهم يعبدون الشمس من دون الله، قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٢٤] فلجلاء الشمس وظهورها عبدت من دون الله عند بعض القـوم، حتى يقول يوشـع بن نون في الحديـث الصحيح: «**إن الله حبس الشمس ليوشع بـن نون حتـى يقاتل**» وهذا فـي البخاري، وكان نبياً مـن أنبياء الله ﷺ، فكادت الشمس أن تغرب وهو يلاقي أعداء الله ﷻ، فنظر للشمس، ثم قال: «**إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم، احبسها علي. فحبسها الله سبحانه وتعالى حتى فتح الله عليه، ثم غابت**».

ولذلك بعض الطوائف يقولون: «إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه نام عن صلاة العصر حتى غربت الشمس، فلما قام وصلى قال: «**اللهم، رد علي الشمس، فردها الله فصلى ثم غابت**».

وهذا تدليس، والحديث لا يصح بحال، وقد اغترّ به مثل الطحاوي وغيره. حتى يقول ابن كثير: من اغتر بتصحيح الحديث فعلى مذهب الحريري الذي يقول عن بعض الأعراب: شرب خمراً فسكر فأخذ يهذي ويقول:

إِنْ كنتُ أدرِي فعلَيّ بدنهْ ... مِنْ كثرةِ التَّخليطِ أنِّي مِنْ أنهْ

واغتر بعض الناس بمثل هذا، ومنهم أبو تمام. مع العلم أن أبيات أبي تمام من أجمل الأبيات، فهو وظف هذه المعلومات الخاطئة، لكن جماليات الأبيات تبقى، يقول:

فردَّتْ علَينا الشمسُ والليلُ راغمٌ ... بشمسٍ لهم فِي جانبِ الخِدْرِ تلمعُ

محا ضوؤُها كسْفَ الدُّجمةِ وانبرَى ... لبهجتِها ضوءُ الصباحِ المرجعُ

فوالله ما أدرِي عليّ بدَا لنَا ... فردَّتْ لنا أَمْ كانَ فِي القومِ يوشعُ

فصحيح أن يوشع ردت له، أما علي رضي الله عنه وأرضاه فلم ترد له.

فمضى الشعراء على هذا، يذكرون الشمس بالعظمة، حتى يقول أحدهم في المكتفي الخليفة العباسي، وقد كان آية من آيات الله في الجمال، وربما ستر وجهه؛ خوفاً من العين، حتى يقول أحد الشعراء فيه:

واللهِ لو كلَّمْتها لو أنَّها ... كالبدرِ أو كالشمسِ أو كالمكتفِي

حلفتْ لنا ألاّ تخونَ عهودَنا ... فكأنَّها حلفَتْ لنَا ألاَّ تفِي

فجعل الخليفة العباسي قريناً للشمس والقمر في حسنه، وهذا من الله سبحانه وتعالى، وقد أعطى يوسف شطر الحسن، حتى قال المتنبي في ذلك:

جميلٌ كأنَّ الحسنَ كانَ يحبُّه فآثرَه أو زارَه في الحسنِ قاسمُ

وهذا فيه تعدّ وطغيان، ولكن جماليات القصيدة في جانبها الآخر.

والنابغة الذبياني يقول للنعمان:

فإنَّك شمسٌ والنجومُ كواكبٌ إذا طلعَتْ لم يبدُ منهنَّ كوكبُ

قال ذلك في قصيدته الماتعة التي من أحسن أبياتها:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه علَى شعثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ

يقول: إذا لم تقبلنا بعلاتنا وتجاوزت عن أخطائنا البشرية فلن تلقى أحداً مهذباً، لا يوجد في الناس أحد مهذب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، هل يوجد في الناس من هو سالم من العيب أو من الخطأ والزلل؟ لا يوجد أحد، إلا الأنبياء المعصومون، فهذا بيت جميل، وقبله يقول:

حلفتُ فلمْ أتركْ لنفسِك ريبةً وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ

وهذا أحسن ختام.

يقول: حلفت لك بالله، أتريد وراء الله مقصداً؟ هل تعلم أكبر أو أعظم من الله؟! هل تعلم له سمياً؟! ولذلك كانوا يقسمون بالله في الجاهلية، وكانوا يعظمونه، ولكنهم لم يفوا بهذا التعظيم، بل أشركوا معه سبحانه وتعالى في الألوهية، فبعث الله الأنبياء وسيدهم ﷺ لتقرير التوحيد.

وطرفة بن العبد كان يوم قتل عمره ستة وعشرون عاماً، وهي العبقرية المتمردة الثائرة التي ولدت في حجرها وفي شبابها وفي ريعانها، يقول في قصيدته الدالية:

ووجهٍ كأنَّ الشمسَ حلَّتْ رداءَه عليهِ نقيُّ اللونِ لمْ يتخدَّدِ

أرَى الموتَ يعتامُ الكِرامَ وينتقِي حليلةَ ما لِلْفاحشِ المتشدِّدِ

يقـول: هذا الموت لا يفرق.. يأخذ الكريـم، ويأتي للبخيل الذي يكنز الأموال ويأخذه على طريقه. ثم يقول:

ولَولا ثلاثٌ هنَّ مِنْ عيشةِ الفَتَى وحقُّك لَمْ أحفِلْ متَى قامَ عُوّدِي

فمنهنَّ سبقُ العاذلاتِ بشربةٍ كميتٍ متَى ما تُعْلَ بالماءِ تزبُدِ

إلـى آخـر ما قـال.. وقد سمع عمر بـن عبد العزيـز بهـذا.. لأن هذا منطق الجاهليـة، يقول: لـولا ثلاث في الحياة كنت وددت أني أمـوت، لأن طرفة جاهلي: المرأة الحسناء والخمر وأن يلاقي العدو.

فملاقاة العدو يعني أن هناك سفكاً للدماء.

قـال عمر بن عبد العزيز في منطـق أهل الإيمان.. منطـق الربانية.. منطق العلم النافع والعمل الصالح.. الخليفة الزاهد المجدد.. قال: وأنا والله لولا ثلاث لـم أحفل متى قام عوّدي، فمنها: تمريغ وجهي فـي السحر داعياً لربي، ومجالسة أقـوام ينتقون أطايب الحديث كما ينتقـى أطايب التمر، ومزاحمة العلماء بالركب في حِلق الذكر.. أو كما قال.

فهذا هو منطق أهل الإيمان، وذاك منطق أهل الجاهلية.

وأحدهم يمدح قومه فيقول:

نحنُ وجهُ الشمسِ إسلامٌ وقوّةْ نسـبٌ حـرٌ ومـجـدٌ وفـتـوّةْ

فإذا مدحوا أحداً جعلوه مثل وجه الشمس أو ارتفاع الشمس.

ونزار قباني يقول:

اركبِي الشمسَ يا دمشقُ، حصانًا   حسبُك اللهُ حافِظاً وأمِينا

في قصيدة له طويلة.

فهم يجعلون الشمس منتهى المجد الذي يصل إليه الإنسان، فأحياناً ينكر الإنسان الحقائق، ولو كانت مثل الشمس، حتى يقول البوصيري:

قَدْ تنكرُ العينُ ضوءَ الشمسِ من رمد   وينكرُ الفمُّ طعمَ الماءِ مِنْ سقمِ

العيب ليس في الشمس إنما العيب في العين، فالعيب في المتلقي وليس في الدليل الذي أمامه أو في البرهان، تعرض له الآية.. الحديث.. الواقعة.. الحادثة.. تشرح المسألة.. فيقول لك: لم أفهم، هذا خطأ. والحقيقة أن الخطأ فيه، هو المعوج، حتى يقول أبو الطيب المتنبي:

ومَنْ يكُ ذَا فمٍ مرٍّ مريضٍ   يجِدْ مُراً بهِ الماءَ الزُّلالا

فالمرارة التي فيه حوّلها للماء، ثم اتهم الماء أنه مر وهو ليس بمر، يقول أحدهم:

فقلْ للعيونِ الرُّمْدِ: للشمسِ أعينٌ   تراها بحق في مغيب ومطلع

وسامِحْ عيوناً أطفأَ اللهُ نورَها   بأهوائِها لا تستفيقُ ولا تَعِي

وبشار بن برد يمدح قومه، فيقول:

إذا مَا غضبْنا غَضْبةً مضرِيَّةً   هتكْنا حجابَ الشمسِ أو تقطرُ الدَّمُ

يقول: تصل سيوفنا إلى الشمس، نغطي الشمس بسيوفنا.

حتى يقول زهير مادحاً أبناء هرم بن سنان:

لو كانَ يقعدُ فوقَ الشمسِ منْ كرمٍ   قوم بآبائهم أو مجدهم قعدوا

محسَّدونَ علَى ما كانَ مِنْ نعمٍ   لا ينزعُ اللهُ منهم ما لَه حُسدُوا

وهـذا آخـر المدح، يقول: لو كان هنـاك أناس من البشـر بكرمهم ومجدهم يجلسـون على الشمس، لأنتم أولى يا أبناء هـرم بن سنان، أن تجلسوا على بساط الشمس، وإنما قال الشمس؛ لأنها أرفع ما يكون عند العرب وأبهى ما يكون وأجمل ما يكون.

فعلم في المسألة قول المتنبي:

وكيفَ يصحُ فِي الأذهـانِ شيءٌ ... إِذَا احتـاجَ النـهارُ إلـى دليـلِ

فـإذا وصـل الإنسان عنده من الحيـرة وتبلد الإحساس والغفلـة والغباء أنك تقرر له الحقائق المعلومة وتظهر له البراهين والأدلة فيتعامى ويتجاهل وينكر ما هو معلوم من الدين والعقل بالضرورة، فاذكر كفارة المجلس وأنهِ الكلام معه.

وكعـب بن الأشرف لما أنكر نبوة رسول الله ﷺ، سأله أهل مكة: نحن أهدى أم محمـد؟ قـال: لا، أنتـم أهدى. فانتهى الحـوار معه في القرآن، قـال سبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٥٢] فهو ملعون؛ لأنـه ينكر الحقائق والبراهين. أهـل الوثـن وأهل الصنم والخرافـة والقتل والسفك والسرقـة والسلب أهدى من صاحـب المحجة البيضاء والدليل والبرهان والهداية الربانية؟! سبحان الله! أين عقله؟! كيف يكون الحوار بعد هذا؟!

هذه هي نهاية الغباء والحمق والعياذ بالله، ولذلك قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١] فألغى الأدلة كلها معهم وقال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٥٢] فإذا لعن الإنسان، فلا يقبل الحق ولا يستمع لدليل ولا يمكن أن يقرأ البرهان، فينتهي الموضوع معه.

فقصدي بهذا أن المتنبي أحسن بهذا، فالحقيقة أن البيت صار مثلاً رائداً وصار شائعاً، ومن ثم اكتسب المتنبي هذا الشيوع والذيوع؛ لذا تجد شيخ الإسلام ابن تيمية يستشهد بقوله عندما يعارضه خصومه، فيقول:

وكيفَ يصحُّ فِي الأذهانِ شيءٌ إذا احتاجَ النَّهارُ إلَى دليلِ

وفي حوار مع الغزالي أتى بمثل هذا، وابن الجوزي وغيره من العلماء، كل يختم مجلسه بقول المتنبي ذاك.

الحوار والمناقشة العلمية تجلية لمسائل غامضة فيها لبس، أما أن تأتي وتقرر للناس مسائل معلومة بالضرورة، فتقول لهم: السماء من فوق والأرض من تحت.. فيقول لك: أعطني دليلاً! فقل له: اعذرني.. لا أستطيع أن أواصل معك الحوار.

هذه بعض الاستطرادات عن الشمس التي نتفيأ بشعاعها وتغمرنا بنورها وبهائها، والإنسان يقرأ عظمة الباري في هذه الشمس التي هي مثل الأرض أربعين مرة وقيل أكثر من ذلك بكثير، وهذه الدراسة قبل ثلاثين سنة عند علماء الفلك.

فسبحان الذي خلق الشمس، قال سبحانه: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يس:٤٠] وقال: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس:٣٨].

وعلى ذكر الشمس، استطراداً:

فللشمس أحكام في الشريعة الإسلامية:

ففيما يروى عن النبي ﷺ، وهو حديث يقبل التحسين: «**أن النبي ﷺ رأى رجلاً اسمه أبو إسرائيل جالساً في الشمس، قال: من هذا؟ قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد وألا يتكلم وأن يجلس في الشمس، قال: مروه فليستظل وليتكلم وليتم صومه**».

فالنبي ﷺ أقره على مواصلة الصوم ومنعه من أمرين حادثين ليس لهما أساس، وهما: السكوت دائماً، والبقاء في الشمس.

وكسفت الشمس في عهد النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم عليه السلام، ولو كان غيره ﷺ من أهل الدنيا وأهل الجاه وأهل التطاول والعلو في الأرض لكان اهتبلها فرصة ووظف الحدث؛ لأن بعض العامة قالوا: كسفت الشمس لموت إبراهيم، يعني اهتز الفلك وتغير الكون، حتى كسفت الشمس لموت إبراهيم ابن النبي ﷺ لمكانته ولما له من فضل، فكسفت من أجله الشمس، لكنه ﷺ جمع الناس، وقال: «**إن الشمس والقمر لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته، إنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما من يشاء**».

فانظر إلى التجرد والتواضع والصدق والإخلاص والصراحة منه عليه الصلاة والسلام.

ونهى ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، تلك اللحظة؛ لأن الكفار كانوا يسجدون لها، فنهانا عليه الصلاة والسلام أن نشابههم.

وفي حديث مسلم عن عقبة بن عامر: «إذا أصبحت الشمس في كبد السماء قبل الزوال فإنه قام قائم الظهيرة» فعند ذلك لا تصلّ حتى تزول قليلاً. هذه أحكام مختصرة من أحكام الشمس.

وأبو تمام رأى أن الشمس أحياناً تحجب بالغيم، فقد أتى إلى المعتصم فتأخر والحاجب لم يدخله؛ لأنه كان هناك حجاب وحراسة في تلك العصور، فقال:

ليسَ الحجابُ بمقصٍ عنكَ لِي أملاً ... إنَّ السماءَ ترجَى حينَ تحتجِبُ

يقول: ما نترجى السماء إلا إذا احتجبت بالغيوم فيأتي الغيث، فأنت ما دمت احتجبت علينا فسيأتينا خير منك مثلما أن الشمس تحتجب بالسحاب، فهذا دليل على أن الغيث والمطر سوف ينزل. وهذا طبعاً من مبالغة الشعراء.

وهـذا مـن أجمل أبياته، وهي مشهـورة وهي سبعون بيتاً، قـال ابن القيم في مفتـاح دار السعـادة: أعطـاه المعتصم على كل بيـت ألف دينار. يعنـي كأنها في زماننا الآن: مليون.

فيقول فيها:

السيفُ أصـدقُ أنبـاءً مِـنَ الكتبِ فِي حدِّه الحدُّ بينَ الجِدِّ واللعبِ

وعبد الله البردوني شاعر اليمن المعاصر عارضه بقصيدة، لكنه رفع القافية الباء، يقول:

مهلاً- فُديتَ- أبـا تمَّامِ تسألني كيفَ احتفَتْ بالعِدا حِيفا أَوِ النقبُ

مـاذا فعلنْ أأغضبْنا الرجالَ ولم نصدقْ وقَدْ صدقَ التنجيمُ والخطبُ

وأطـفـأتْ شهبَ النيرانِ أنجمُنا وشمسُنا وتحدَّت نارَها الخطبُ

وقـاتلَتْ دونَنـا الأبـوابُ صـامدةً أمـا الرجالُ فماتُوا ثم أو هربُوا

إلى أن يقول:

مهلاً ستصغِي لنا الدُّنيا بأكملِها إنَّ السماءَ تُرجَى حينَ تحتجبُ

فأتى بهذا التوظيف لأبي تمام.

الشاهد: إن الناس يستبشرون إذا احتجبت الشمس واستترت بالغيم، قالوا: هذا بشير خير وبشرى، إن شاء الله سينزل الغيث.

والمتنبي استخـدم الشمس كثيراً في ديوانه، أكثر من ثلاثين مرة، يقول عن سيف الدولة:

الشمسُ مِنْ حسادِه والنصرُ مِنْ قرنائِه والسيفُ مِـنْ أسمائِه

يقـول: إن الشمس تحسد سيف الدولة! وانظر إلى المبالغة التي ليس لها حد ولا أساس، والنصر من أصدقائه وجلسائه، والسيف من أسمائه؛ لأن اسمه سيف الدولة.

أيـنَ الـثـلاثـةُ مِـنْ ثـلاثِ فـخـارِهِ　　مِــنْ عــزِّهِ وجـمـالِـه وبـهـائِـه

يقول: هو أكثر من الشمس بهاءً، ومن النصر بقاءً، ومن النصر مضاءً، وهذه من المبالغات.

الشمسُ مِنْ حسادِه والنصرُ مِنْ　　قـرنـائِـه والـسـيـفُ مِـنْ أسـمـائِـه

أيـنَ الـثـلاثـةُ مِـنْ ثـلاثِ فـخـارِه　　مِــنْ حـسـنِـه وإبـائِـه ومـضـائِـه

مضتِ الـدهـورُ ومـا أتـيـنَ بمثلِه　　ولـقَـدْ أتَـى وعـجـزْنَ عَـنْ نظرائِه

أما هذه فلا تكون إلا في الرسول ﷺ، أما سيف الدولة فلا، أتى مثله وسبقه ملوك وأتى بعده ملوك ومثله حكام ألوف، وقبله وبعده، أما سيد الخلق ﷺ فإنه النبي الخاتم والمعصوم، وأشرف خلق الله، وأبر من خلق الله، وهو أطهر وأحلم، عصم الله قلبه، وزكى فؤاده، وسدد كلامه، وصحح منهجه، وطهر ضميره، وحفظه وتولاه وأنعم عليه، وجعله هو الخاتم والشفيع المشفع، صاحب الحوض المورود واللواء المعقود والمقام المحمود، فماذا نقول؟ نكتفي أن نقول: صلى الله وسلم عليه، إن أحسن ما تفعله إذا أتيت عند هذا المقام أن تكثر من الصلاة والسلام عليه ﷺ؛ ولذلك يقول ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا: عبد الله ورسوله**» ولما مدحه بعض الوفود قال: «**أيها الناس، قولوا بقولكم أو ببعض قولكم**» فصلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، وما غفل عن ذكره الغافلون.

فالذي أعظم من سيف الدولة هو محمد سيد الخلق ﷺ، إذا ذكر محمد ﷺ فلينصت الدهر وليتوقف التاريخ ليكتب وليتواضع الزعماء وليخشع العلماء وليسكت الأدباء وليخرس المتكلم؛ حتى ننتهي عن وصفه عليه الصلاة والسلام، فهو ﷺ ليس بحاجة لوصفنا، فهو عبد الله ورسوله، رفعه سبحانه وتعالى، والله أثنى عليه قبل أن

يثني عليه المثنون، حتى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] بالله ماذا يجدي مدح شاعر الآن أو كاتب في رسول الله ﷺ، والواحد الأحد فوق العرش سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] عظيم خلقك، عظيم صبرك، عظيم تواضعك، عظيم كرمك، الله يزكيه ويقول له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ويقول له: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، يقول: سوف يبعثك يوم القيامة مقاماً محموداً وهو موقف الشفاعة التي يغبطه الأولون والآخرون عليها - بأبي هو وأمي ﷺ - حتى تأتي كل الأنبياء يعتذرون من الشفاعة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، كلٌّ يقول: نفسي نفسي، فيأتي الخلائق كلهم: أمة نوح وأمة إبراهيم، وأمة موسى، أمة كل نبي وأمة عيسى عليهم السلام، فيقولون: «يا رسول الله، اشفع لنا، اشفع لنا عند ربك يقضي بيننا هذا اليوم، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما أصابنا؟ قال: أنا لها أنا لها، فيأتي ﷺ ويسجد تحت العرش ويفتح الله عليه من الثناء والمحامد، فيقول له ربه: ارفع رأسك، وسل تُعطَ، واشفع تشفع».

هو نبي معصوم عليه الصلاة والسلام، وضح به المحجة وقام الدليل ودخل دينه في كل مكان وسمعت منه العجوز، مثلما سمع منه الملك، مثلما سمع منه الأمير، مثلما سمع منه العالم، كما قال أبو الطيب:

خذْ ما رأيتَ ودعْ شيئاً سمعتَ به ... في طلعةِ البدرِ ما يغنيكَ عَنْ زُحَلِ

جاءتك الشريعة الإسلامية المحمدية الخالدة، وتبحث عن آراء سقراط وبقراط وجالينوس الذين ما اهتدوا أصلاً، ضلال في ضلال، هم في التخمين والشك وأتانا نور ساطع على يدي رسول الله ﷺ.

فالمتنبي شاعر بلا شك لكننا لاحظنا عليه كغيرنا ملاحظات؛ لأنه بشر يتكلم ببشريته وليس بنبي معصوم، ولو أنا نعترف بقدرته وبعبقريته وبلموعه

ولذلك سميناه الأسطورة، فأنت تجريه كما أردت؛ لأنك تأخذ منه الحكمة والمديح والهجاء، ولكنني أوصي من يطالع ديوان هذا الرجل أن يحاكمه إلى الشريعة، وأن يأخذ منه ما وافق الكتاب والسنة، وأيضاً يستفيد من إبداعاته وفصاحاته في أسلوبه في كتابته، وقصدي هذا القارئ إذا كتب إذا خطب، إذا وعظ، إذا حاور، فإن له فرائد من الأبيات سارت بها الركبان وشهد له العلماء وأقر له النقاد، حتى كان عند الكثير منهم الشاعر الأول في مجموع الشعراء، لا أعلم شاعراً في الإسلام ولا في الجاهلية سار شعره في الناس وسارت حكمه على المنابر وفي بطون الدفاتر وحمله أصحاب المحابر مثل هذا الرجل.

وتعجبني كلمة لابن حزم الظاهري أبي محمد علي بن أحمد من أهل الأندلس، المجدد في علم الحديث والأثر، وهو عبقري بلا شك لولا بعض الأخطاء التي لا يسلم منها البشر، وهو صاحب المحلى، وهو أديب موسوعي نظار.. محدث.. يقول:

وإنّي لشمسٌ في السماءِ مضيئةٌ ولكنّ عيبي أنّ مطلعيَ الغربُ

فهو من الأندلس نشأ هناك، يقول: أنا لست من المشرق، وإنما جئت خلاف ما تأتي عليه الشمس، فالشمس تأتي من المشرق، وأنا جئت من المغرب.

والعظماء والعباقرة دائماً يجدون أحياناً قهراً اجتماعياً وعدم اعتراف من الآخرين، فيجعل الواحد منهم يعبر عن نفسه بنفسه، وبعضهم ينتظر أحداً يمدحه، فإذا لم يجد أحداً يمدحه استعان بالله سبحانه ومدح نفسه.

ويقول أحدهم في ممدوحه:

إذَا حلَّ الشتاءُ فأنتَ شمسٌ وإنْ حلَّ المصيفُ فأنتَ ظِلُّ

ولا يُدْرَى مِنَ التجويدِ يوماً أيكثرُ فِي عطائِك أمْ يقِلُّ

يقول: أنت لا تدري عن عطائك، هل تهب كثيراً أو لا من كثرة السماحة وكثرة العطاء، فأنت عندنا مثل الشمس في الشتاء. فالشمس في الشتاء من أحسن ما يكون.

وقد قرأت لأحد السجناء الذين سجنوا ما يقارب خمسة عشر عاماً، وهو من المفكرين المعاصرين الكبار، يقول: كنا في الحبس لا نرى الشمس، فكان في الباب ثقب في جهة المشرق، فينسل منه كالدرهم علينا، فكنا نتناوب نحن السجناء سريعاً قبل أن ترتفع الشمس فيختفي هذا الضوء من ثقب الباب، حتى نجعله على أجسامنا، علنا ندفأ! لا يجدون الشمس إلا في هذه المدة، الدقائق البسيطة، تنعش أجسامهم، ثم يقول: وأنتم أيها الأحياء، الذين خارج السجن، أنتم تسبحون في نهر الشمس وفي ضوء الشمس وفي شعاع الشمس وذهب الشمس.. ألا تشكرون رب الشمس سبحانه وتعالى، سبحان الذي أعطانا الضياء والهواء والماء والغذاء والدواء وسخر لنا جميع الأشياء، وأعطانا من كل ما سألناه تعالى رب الأرض والسماء. وهذا من نعم الشمس التي نراها!

وحدثنا مفتي ألبانيا يقول: سجنه الشيوعيون في يوغسلافيا، وكان الرئيس هذا اسمه تيتو، سجنه عشرين سنة تحت الأرض، يقول: لم أرَ الشمس عشرين سنة، مع الأعمال الشاقة، حتى إن أظفاره كانت محدبة من كثرة ما كان يعمل في الأعمال الشاقة، قال: كنت إذا أردت أن أصلي فإني أختفي عن الجنود الشيوعيين، وأدخل في طرف غرفة، قريباً من دورة المياه، فأصلي الصلاة سريعاً؛ لأنه كان صاحب عقيدة وصاحب إيمان، ثم أخرجه سبحانه وتعالى.

فانظر لهذه المشاهد التي نراها الآن ولا نتفكر، وسبحان الله فكثير من الناس لا يتفكر، وإلا فإن الشمس آية عظيمة على قدرة الباري جل في علاه لا إله إلا هو، يقول سبحانه: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ [يس:٤٠] ففي حسبان الواحد الأحد أنه لا يمكن يوماً من الأيام أن تصطدم الشمس بالقمر، لا يمكن هذا، كما قال القائل:

فَلا تلهِكَ الدُّنْيا بلهوٍ فإنَّه ... يعاقُ مسيرُ الشمسِ بالدَّورانِ

يقـول: أحياناً يأتـي نجم كبير فيعوق الشمس فيأتـي الكسوف، عند بعضهم، وبعضهم يقول: إن الأرض تحل بين الشمس والقمر، فقلت في هذا أبياتاً:

لا تـلـهـكَ الـدُّنْيـا بـلـهـوٍ فـإنَّـه ... يـعـاقُ مـسـيرُ الـشـمـسِ بـالـدورانِ

فقَدْ هَدَّ قِدماً عرشَ بلقيسَ هدهدٌ ... وخَـــرَّبَ فـأرٌ مـا بـنَـى اليـمـنـانِ

لأن صاحـب اليمـن لما بنى سـد مأرب خربه الفـأر، والهدهـد دل على مملكة بلقيـس، وهذا من تفاهة الدنيـا، والبعوضة قتلت النمرود بن كنعان، والذباب تحدى الله به العالم، والحمار جعله الله وصفاً لأعدائه، والكلب جعله وصفاً للعالم السوء.

فهـذا يبين لك ببساطة كيف يهدم الله سبحانه مجد الظلمة والطغاة بأشياء بسيطـة مـن الحيوانات والزواحـف والحشرات، حتـى تحداهم سبحانـه وتعالى بالذباب، وجعل العنكبوت مثلاً لقوتهم وقدرتهم، فسبحان القادر، لا إله إلا هو!

يقـول: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس:٤٠].

فـكل بحسبـان، وكل بأجل مسمـى، وكل بمنـازل معلومة محسوبـة محدودة معـدودة، حتى إن أينشتاين المشهور صاحب النظرية النسبية يقول: إن من ينظر إلـى الكـون فينظر إلى إبداعـه وينظر إلى تناسقه وجماله يعلـم أن مبدعه حكيم سبحانه لا يلعب بالنرد.

والنرد هي اللعبة المعروفة، تتفق أو لا تتفق، لا كل شيء بحسبان، ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس:٣٨] فالعزيز العليم بعزته سبحانـه حكم، ولعلمه قضى بإتقان وإحسان وإبداع في الكون، فعزة بلا علم فيها هـوج وطيش في غير صفات الله، وعلم بلا عـزة ضعف، ولا تكون العزة والعلم إلا لله سبحانه وتعالى.

يذكـرون أن الشمس اشتد ضياؤها مرة في عهد النبي ﷺ واشتدت الحرارة على الناس وأصابهم قحط بسبب شدة الشمس، فلا سحاب ولا غيم في السماء، ولا موسم لنزول الغيث؛ لأنه في شدة القيظ والصيف، فرسول الله ﷺ كان يخطب الناس في خطبة الجمعة، فدخل أعرابي من باب المسـجد، فصاح بأعلى صوته.. والرسـول ﷺ يتكلم عن الإيمان ويرسخ العقيدة في قلوب الناس، لم يتكلـم عن الغيث عليه الصلاة والسلام أو القحط، فنادى بأعلى صوته: «يا رسول الله، - وقيـل لجفائه قال: يـا محمد، - جاع العيال، وضاع المال، وتقطعت السبل، فـادعُ الله أن يغيثنا، فقضى ﷺ كلامه، ثم قال: اللهم، أغثنا اللهم، أغثنا اللهم، أغثنـا» بيديه الطيبتين المباركتين، فما هي إلا لحظات حتى فار كالترس من جبل سلع المعروف، فغطى المدينة وغشاها وأبرقت وأرعدت وأزبدت وهلت غيثاً، فنزل الماء في لحظة وصب الماء من على وجه النبي ﷺ الشريف، وكان يقول: «**أشهدُ أنّي رسولُ اللهِ**».

فنشهـد أنـه ﷺ رسوله ونبيـه المصطفى وخليله، إنما قلـت هذا على سبيل ذكر الشمس.

المتنبي في الميزان

محاكمة المتنبي تعني النظر إلى معانيه، فسوف نضعه أمام العدالة، لكننا لن نظلمه ولن نبخسه حقه، فقد اعترفنا له كمعظم النقاد بأنه مبدع، اعترفنا بأنه عبقري، اعترفنا بأنه إمبراطور الشعراء، أنه قائدهم، أنه متفوق عليهم بلا شك، وجئنا بمحاسن شعره وبحكمه، ولكن وجب علينا أن نقف معه وقفة؛ لأنه تجاوز الحد في بعض الأبيات وطغى به فرسه وجمح به، وزل به قدمه، فخشية أن يغتر الجيل ببعض الأبيات في ديوانه أردت أن أعقد مناظرة ومحاكمة له

بإنصاف وبعدل فلا نظلمه؛ لأنه ليس عالم شريعة حتى يعرف الخطوط المرسومة والخطوط الحمراء، وليس هو طالب علم وإنما أراد الشهرة وأراد الدنيا وعنده ملكة في الشعر، وعنده قوة وعنده فصاحة وبلاغة، فتجاوز في كثير من الأبيات ولذلك نبه عليها الأدباء، حتى بعض النقاد الكبار من غير علماء الشريعة، نبهوا على تجاوزاته هذه، ومن ضمنها قوله في بعض الأبيات:

يترشفْنَ مِنْ فمِي رشفاتٍ هنّ فيهِ أحلَى مِنَ التوحيدِ

وهذا عند الكثير أنه يقصد التوحيد الذي هو الدين والشريعة، توحيد الله سبحانه وتعالى الذي بعث الله به أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وقال بعضهم: إنه لا يقصد التوحيد الذي هو الإيمان، بل يقصد نوعاً من التمر في العراق اسمه التوحيد، وقيل العنب من أسمائه وهذا بعيد، وقيل المسكر، وبعضهم حمله على محامل أخرى، لكن الظاهر المتبادر للذهن أنه يقصد التوحيد الذي هو الإيمان، سبحان الله! هذه الرشفات التي في فمه أحلى من التوحيد الذي بعث الله به رسله عليهم الصلاة والسلام، وهو حق الله على العبيد، ولذلك- حتى ولو كان يقصد تمراً مثلاً أو يقصد خمراً أو يقصد عنباً- لا يجوز الإيهام على الناس في مثل هذه الألفاظ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ [البقرة:١٠٤] فلما كان اللفظ موهماً، (راعنا) مثل انظرنا، أي: انتظرنا وراعنا أي: اصبر علينا، لكن اليهود لما استخدموه استخداماً آخر، فقالوا: راعناً، يعني: من الرعونة والحمق، أمر الله عباده المؤمنين ألا يأتوا بهذا اللفظ؛ لأنه ملتبس، فإذا كان اللفظ فيه شبهة، فلماذا تقف عنده؟ لماذا تحير الناس؟

القارئ البسيط والمبتدئ يفهم أنك تقصد التوحيد الذي هو أعظم الرسالات المنجية من غضب الله وهو الذي يدخل العبد في جنات النعيم، وهو دعوة الأنبياء عليهم الصلاة السلام، وهو الذي تقوم به الشرائع، وهو حقه سبحانه وتعالى على الخليقة، فهذا مما أخذ عليه، ونقول: إن كان يقصد هذا، فلماذا ما اختار اللفظ؟ المتنبي مقتدر على صنع الحرف وعلى إبدال الجمل فلماذا يقف عند هذه؟

ثم انظر إلى قصيدة أخرى يقول:

أبَــداً أقــطــعُ الــبــلادَ ونــجــمِــي ... فِــي نُــحُــوسٍ وهــمَّــتِــي فِــي سُــعُــودِ

يقول: أنا أمشي دائماً من بلدة إلى بلدة ومن موطن إلى موطن، لكن العجيب أن نجمــي في نحوس، فكأنــه يأخذ بتأثير النجوم، «**ومن تعلـم شعبة من النجوم تعلم شعبة من الشرك زاد ما زاد**» كما ورد عن سيد الخلق ﷺ، فالذي يؤمن بأن النجوم مؤثرة فهو مخطئ ضال منحرف عن منهج الله ﷻ وهي شعبة من الشرك لمن يتعلمها ويرى تأثيرها في الناس، حتى إن أبا تمام- ولو أن المتنبي أشعر منه في الجملة- أقرب إلى الدين والهداية منه؛ فهو يقول:

أيـنَ الـروايـةُ أم أيـنَ الـدرايـةُ كَمْ ... صاغُوه من زخرفٍ فيها ومِنْ كذبِ

بــهــارجٌ وأحـــاديـــثٌ مــنــمــقــةٌ ... ليستْ بنبعٍ إذا عُــدّتْ ولا غربِ

يقول: المنجمون قالوا للمعتصم: لا تغزُ، فخالفتهم أنت وغزوت، قال: هذا كله تدليس وكله كذب، لكن انظر لهذا يقول: (**أبداً أقطعُ البلادَ ونجمِي فِي نحوسٍ**) يعنــي: مشؤوم منحوســ، لا يتفق له شيء، فلا يوفق ولا ينجــح. قال: (**وهمَّتِي فِي سعـودِ**) فهــو سعد، يمدح همتــه يقول: أنا مــا قصرت من جانبــي، لكن حظي أن نجمي هكذا؛ لأن بعض الجهلة والضلال يرون النجوم تؤثر في الناس، ثم العجيب أنه متناقض في قصيدة ثانية يرد على أهل النجوم، ويقول:

فــتــبــاً لــديــنِ عــبــيــدِ الــنــجــومِ ... ومَـــنْ يــدَّعِــي أنَّــهــا تــعــقــلُ

يقول: كذبهم الله وخيب سعيهم، الآن يناقض نفسه في قصيدة ثانية. يقول: هي لا تعقل ولا تدري، كما يقول أبو تمام:

يقضونَ بالأمرِ عَنْها وهيَ غافلةٌ ... ما دارَ فِي فلكٍ مِنْها وفِي قطبِ

لو بَيَّنتْ قطُّ أمــراً قبلَ موقعِه ... لم تُخفِ ما حلّ بالأصنامِ والنصبِ

يقول: لو أنها تبين لعلمت الروم أن المعتصم سوف يغزوهم ويدوسهم بالخيل، فإنه يقول: يقضون عنها وهي غائبة. النجوم زينة للسماء ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ورجوم للشياطين، ثلاث فوائد، أما من يعلق عليها غير ذلك فقد أخطأ وافترى على الله وكذب وأساء، فهنا رجع يقول:

(**فتباً لدينِ عبيدِ النجومِ**) الذين يظنون أنها تؤثر، يقول: خيب الله سعيهم، سحقاً لهم، هي لا تؤثر أبداً وهو في البيت الأول يقول: إنها تؤثر، (**ونجمي فِي نحوسِ**)، ثم يقول: ومن ادعى أنها تعقل فقد ضل؛ فهذه مخلوقات من مخلوقات الله ﷻ، لا تؤثر في الحمل، لا تؤثر في الحظوظ، لا تؤثر في الأرزاق ولا في الإنجاب ولا في شيء، هي مخلوقة كالجبال وكالشجر، يقول في بيت آخر من قصيدة أخرى- وانظر الطغيان والجموح، والإنسان إذا ما لم يكن عنده رابط من وعي ومن عقل ومن إيمان ومن شريعة، فإنه يتجاوز الحد- يقول:

فاطلبِ العزَّ فِي لظَى وذرِ الذُّلْ ... لَ ولَو كانَ فِي جِنَانِ الخُلودِ

يقول: اطلب العز في الدنيا ولو كان في جهنم، همه فقط الرئاسة الدنيوية، الشهرة، الظهور، الصدارة في الناس، لا والله بل يُطلب رضا الله وطاعته سبحانه وتعالى ولو كان الإنسان خادماً، ولو كان ينام على الرصيف، ولو كان يحمل الحطب على ظهره، أهم شيء أن يرضي الله؛ لينال جنات النعيم. فما يوصلك إلى الجنة إلا كل عمل طيب، وليس الذل هذا؛ لأن العمل الصالح الذي يوصلك إلى الجنة كله خير ورفعة، ومهما يقم به الإنسان؛ بأي خدمة شريفة فإنه في عز، لكن هو انعكست عنده الأمور، يريد الشهرة الظاهرية وشرف الدنيا، وجاه الدنيا، فنسي تلك المنازل، فلذلك عاد يتجاوز ويجمح به جواده حتى لامه السقاف صاحب العود الهندي في شرح مجالس الكندي، الكندي: يقصد أبا الطيب المتنبي؛ لأنه من كندة هو، اسمه: أحمد بن حسين الكندي، فشرح له بكتاب العود الهندي الذي هو من أجمل كتب الأدب على الإطلاق، وهذا عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف

من حضرموت توفي قبل خمسين سنة، كتابه في ثلاث مجلدات، فلامه وبكّت المتنبي في هذا، يقول: كيف تطلب العز في جهنم، بل العز يكون في طاعة الله الموصلة إلى رضوانه وجناته، فهذا أخطأ فيه، ونرده ونقول للجيل: انتبهوا لأبيات عند المتنبي ما يقارب مئة بيت قفوا عندها ولا تغتروا بها، يكفي أنه أبدع في مئات الأبيات، لكن هذه نحذر عندها.

يقول في القصيدة نفسها:

أنَا فِي أمةٍ تداركَها اللـ ـهُ غريبٌ كصالحٍ فِي ثمودِ

يقول: إن الأمة تداركها الله بالمتنبي.

وهذا خطأ، فإن الذي أنقذنا الله به هو محمد عليه الصلاة والسلام، وهو النبي المعصوم المؤيد بجبريل عليه الصلاة والسلام، أما المتنبي فشاعر من الشعراء ويجهل كثيراً من قضايا الدين، بل لو تسأله عن سجود السهو، هل هو قبل السلام أم بعده، ربما لا يعرف ذلك، وما يحفظ كثيراً من القرآن، الرجل مهموم بالشهرة وعنده إبداع في القافية وعنده تلاعب بالألفاظ وعنده قوة في الفصاحة والبلاغة، لا ننكر ذلك فهو سيد الشعراء، أما في الشرع فلا، ثم ما هو مردود المتنبي على الأمة؟ فلو لم يكن المتنبي موجوداً، فماذا سيضير الأمة؟، حتى إن ابن تيمية يقول: لو ما خلق الله البخاري ومسلم لم ينقص من الدين شيء، دين الله تام، ودين الله كامل، بل نزل على الرسول ﷺ في عرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة:٣] قبل الأئمة الأربعة وقبل أن يأتي البخاري ومسلم، فضلاً عن المتنبي الذي هو شاعر لم يشتغل بعلوم الشريعة، ولم يحفظ القرآن، ولم يقرأ الحديث، فكيف يكون غريباً كصالح في ثمود؟ يقصد النبي صالحاً عليه السلام في قومه ثمود، وهذا غاية البطلان والخسران والخذلان، فقد رفع الله قدر أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

وأتى يمدح رجلاً آخر، وانظر الآن إلى الطغيان والجموح، يريد الجائزة، يخلع قلب الممدوح هذا؛ لكي يعطيه أي شيء من الذهب، اسم الممدوح محمد قال:

لَمْ يخلقِ الرحمنُ مثلَ محمدٍ أبداً وظنّي أنّه لا يخلقُ

أي: وظني أنه لن يخلق مرة ثانية.

تعالى الله سبحانه وتعالى. أولاً: قد خلق الله من هو خير من هذا الرجل وهو سيد الخلق ﷺ محمد، وأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، والخلفاء الراشدون، والصديقون، والشهداء والأولياء والعباد الزهاد، أما قد خاب ظنك وأخطأ حدسك، بل الله سبحانه وتعالى له الحكمة المطلقة، وله المشيئة وهو على كل شيء قدير، وأنت لا تعرف الناس، وأنت أجهل من أن تتحكم في القدرة، وتقوم آلاف السنوات التي مرت ومليارات البشر الذين فيهم البر والراشد وفيهم الصالح والطالح، فالواجب أن يؤدب على مثل هذا المدح.

ويمدح رجلاً آخر، فقال:

ألا كلُّ سمحٍ غيرَك اليومَ باطلٌ وكلُّ مديحٍ فِي سواكَ مضيَّعُ

بل مدح الله ﷻ ليس مضيعاً وهو الأعظم، وعند مسلم في الصحيح: «لا أحد أحب إليه المدح من الله» ولذلك مدح نفسه سبحانه وتعالى، وعند الإمام أحمد عن الأسود بن سريع في المسند: «أما إن ربك يحب المدح».

والذي يستحق المدح أيضاً بعد الله ﷻ أنبياء الله ورسله والأخيار، لكنه الجموح وطغيان اللفظ وعدم مراقبة الله ﷻ فيما يقول.

ويقول في بيتين له ثانيين:

يَـا مَـنْ ألـوذُ بـه فيمَـا أؤمِّـلـه ... ومَـنْ أعـوذُ بـه مِـمَّـا أحـاذِرُه

لا يكسرُ الناسُ عظماً أنتَ كاسرُه ... ولا يهيضونَ عظماً أنتَ جابرُه

وهذا هو غاية الخذلان، يقول لبشر: إني ألوذ بك فيما أؤمله، ولا يلاذ إلا بالله، ولا يُسأل إلا الله، ولا يعاد في الملمات إلا للواحد الأحد؛ لقوله ﷺ عند الترمذي وأحمد: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**». فهذا مما تجاوز فيه، يقول ابن تيمية لما سمع البيتين هذين: إني أدعو بمضمونهما في سجودي لله رب العالمين، يعني: بمعناهما، فكيف هذه التي لا تصلح إلا للواحد الأحد؟ كيف يأتي هذا البشر فيصرفها لبشر مثله لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وهو يمدح ممدوحاً آخر ويتجاوز أيضاً ويستمر في الطغيان اللفظي وفي الجنوح المعنوي يقول:

يـا مَـنْ نـلـوذُ مِـنَ الـزمـانِ بظلّه ... أبَـداً ونـطْـرُدُ بـاسْـمِـه إبْلِيسـا

يقول: إذا داهمنا الخطر، ووقعت بنا ملمات من الدهر - على مذهب الدهريين - لذنا بك، يقصد ممدوحاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، مخلوق ضعيف بشر، لكن انظر إلى المجاملة الزائدة والإفراط في المدح إلى درجة المحرم، تجاوز الحد في الشرع؛ فلا يلاذ إلا بظل الواحد الأحد، فإنه لا ينفع ولا يضر إلا هو سبحانه، ولا يكشف البلوى إلا هو جل في علاه.

ولا يطرد إبليس إلا باسم الله، وأعوذ بالله، وبالأذكار الشرعية، والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية. أما اسم البشر فلا يطرد به إبليس. وهؤلاء أصلاً

قاصــرون، هــؤلاء بشر يهجم عليهــم الشيطــان ويأتيهم الغضــب والضعف ونحو ذلك، فالعجيب أنه بالغ لقلة الورع عند الرجل وقلة الإيمان والتقوى وعدم مراقبة الواحــد الأحد، وهو غريب من هــذا الأسطورة في بيانه وإبداعه وحكمه وعبقريته وفصاحتــه ونبوغه، والهدف التنبيه على الأشياء التــي وجدت فيه، كبشر كشاعر كإنسان يخطئ، فمنها هذا البيت.

ويقول في القصيدة نفسها في آخرها:

أو كانَ صادفَ رأسَ عازرٍ سيفُه ... فِي يومِ معركةٍ لأعْيا عيسَى

يقــول: إن من شجاعتك لو أنــك أيها الشجاع، قتلــت عزرائيل الذي هو ملك المــوت بسيفك، وجاء عيسى عليه السلام الذي يحيي بــه سبحانه وتعالى الموتى بإذنه لما استطاع أن يرد رأس هذا ويحييه لقوة ضربة السيف.

أعــوذ بالله، أعوذ بــالله من المبالغة، ولا أدري كيف يرضــى هذا الممدوح بهذا الكلام الذي لا يوافق عقلاً ولا نقلاً، بل يخالف شرائع الله سبحانه وتعالى، إنسان بشر بسيفــه يقتل ملك الموت، ملك الموت الذي يدخل علــى الملوك ويدخل على الأقوياء، ويدخل على الجيوش، ويدخل على الدول، وهذا يا هو الهجاء، إذ كيف يصدق الممدوح هذا، ويسكت على العبارة. والله أعلم إن كان قالها أو دسّت في أشعاره.

ويقول في قصيدة أخرى يرثي:

وكأنَّما عيسى ابنُ مريمَ ذكرُه ... وكأنَّ عازرَ شخصُه المقبورُ

أنبيــاء الله أجــلّ وأعظم، وملائكتــه سبحانه وتعالى كذلــك، فانظر إليه في المبالغة، يقول: إنك مثل عيسى ابن مريم، وذكرك مثل ذكر عيسى، أعوذ بالله، بل أنبياء الله أعظم وأرفع، الله شرفهم وعصمهم سبحانه وأيدهم بالنبوة، ونزههم من العيوب ومــن الأخطاء وطهّر قلوبهم وزكّى ضمائرهم سبحانه وتعالى ووفقهم

وألهمهم وسددهم وأرشدهم، فتأتي إلى بشر مقبور مرتهن بعمله، ضعيف عن المدافعة عن نفسه، مقيد بحسناته وسيئاته وتصفه بهم؟ وعازر: يقصد عزرائيل، يقول: كأن ملك الموت مات في هذا القبر، وهذا كله جموح، حتى الجماليات لا توجد في القصيدة، خلاف قصائده التي كان فيها اعتدال وكان فيها نبوغ وكان فيها حكمة، التي سارت في الناس، ولذلك تجد هذه الأبيات في ديوانه ميتة ما سارت في الناس، وما جعل الله لها الانتشار مثل أبياته القوية التي يقول فيها:

مَنْ يهُنْ يسهلِ الهوانُ عليهِ ... ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ

لعلَّ عتبَك محمودٌ عواقبُه ... فربَّما صحَّت الأجسامُ بالعللِ

علَى قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي علَى قدرِ الكرامِ المكارمُ

ومِنْ نكدِ الدنيا علَى الحرِّ أنْ يرَى ... عدُوّاً لهُ ما مِنْ صداقتِه بُدُّ

أعزُّ مكانٍ فِي الدُّنَا سرجُ سابحٍ ... وخيرُ جليسٍ فِي الزَّمانِ كِتابُ

لا خيلَ عندَك تهديها ولا مالُ ... فليسعدِ النطقُ إنْ لم تُسعدِ الحالُ

وإذَا أتتْكَ مذمَّتِي مِنْ ناقصٍ ... فهيَ الشهادةُ لِي بأنِّي كاملُ

إذَا ساءَ فعلُ المَرْءِ ساءتْ ظنونُه ... وصدَّقَ ما يعتادُه من توهُّمِ

ونحو هذا اللموع، لكنه أساء بهذه الأبيات التي ما نقلت ولا حفظت وليته ما قالها، ونعوذ بالله من هذا الخذلان الذي وقع فيه في هذه الأبيات، يقول:

ملكٌ تصوَّرَ كيفَ شاءَ كأنَّما ... يجرِي بفصلِ قضائِه المقدورُ

يقول: إن هذا الملك قد تصور كما شاء، يعني: هو صور نفسه في بطن أمه، جنين يصور نفسه، إنسان لا يدري متى يموت ولا يدري عن رزقه ولا أجله أشقي هو أم سعيد؟!

يقول: كأن المقادير تجري على قلم هذا الملك، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والله على كل شيء قدير، بل الذي قدر الله وحده سبحانه، وسبق علمه المقادير والكتابة والتقدير، والقضاء، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، كل شيء في كتاب مسطر، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، هذا قضاؤه سبحانه وتعالى، لكن هذا من تجاوزه وجموحه.

ويقول في قصيدة أخرى:

فما ترزقُ الأقدارُ مَنْ أنتَ حارمٌ ... ولا تحرمُ الأقدارُ مَنْ أنتَ رازقُ

هذا الكذب، يقول: إنك إذا حرمت إنساناً ومنعته فإن الله لا يرزقه، يعني: كأن الرزق منك. إذاً من رزق الخليقة منذ خلق السموات والأرض؟ وهذا البشر جاء من ضمن المليارات من البشر عمره خمسون أو ستون سنة مثل ذرات الرمل في العالم، وهم مليارات البشر، هذا الذي يرزق العالم. يقول: وإذا رزقت إنساناً فإنه لا يُحرم أبداً، وهذا هو الخطأ والتجاوز؛ فالذي يرزق الخليقة هو الله وحده سبحانه، وهو يقول سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، وفي جامع العلوم والحكم: (يقول الله لموسى: يا موسى، يقول بنو إسرائيل: إني فقير) سبحانه، (وكل الخليقة منذ خلقت السموات والأرض أرزقهم ولم يفض مما في يميني...) أو كما ورد في الحديث، فدل على أن الرزق من عند الله ﷻ، لا إنسان يمنعه ولا يقدمه ولا يمكن أن يملك الإنسان حرمان الناس، فإن كتب الله لك رزقاً لتأخذنه على أنوف العالمين أجمعين، وإن حرمك من رزق فلن تناله أبداً وإن اجتمع الناس أجمعون، وإنما أتيت بهذا لأنبه على هذا الطغيان وهذا التجاوز غير المشروع.

ويقول: مادحاً قوماً:

ولو يمَّمْتَهم في الحشرِ تجْدُو ... لأعطوك الذي صلَّوا وصامُوا

يقـول: من كرمهم فإنك لو أتيت يوم القيامــة وتقول: أعطونا حسنات، قالوا: خذ أجر صلاتنا وصيامنا، وهذا كذب، فإن الإنسان يتنكر حتى لأمه التي أرضعته وربتـه وحملته واحتضنته يقول: نفسي نفسي، والأب يقول لابنه الذي هو أعز شيء عنده: نفسي نفسي، يطلبه حسنة.

فهذا هو الكذب وهذا هو العدوان؛ لأن المتنبي لا ينطلق من ثقافة شرعية، ولا علم بالكتاب والسنة، فتجاوز الحد، فأنبه على ذلك؛ حتى لا يؤخذ كل نتاج المتنبي، وتنشـر في الخطب والمساجـد، وإلا فإن العلمـاء أكثر شعر يستشهـدون به شعر المتنبي حتى ابن تيمية، الغزالي صاحب الإحياء، ابن حزم الظاهري، الشوكاني، الصنعانـي، ابن الوزيـر، علماء الإسلام الكبار والصغـار كلهم يستشهدون بهذا، ابـن القيم، ابن الجوزي، كلٌّ يأخذ وينهل من هذا العبقري الشاعر العجيب، ولكن لا يقولَـنَّ إنســان: أصبح كلام المتنبي مسلّماً، بعد هــذه السقطات الموحشة التي تجرح في المعتقد والتي لا يوافقها عقل.

ويقول في بيت آخر:

فلقَدْ دُهـشِـتْ لِـمَا فعلتُه دونَـه ... ما يدهشُ الملِك الحفِيظُ الكاتِبُ

يقول: إني لما رأيت كرمك أصابتني الدهشة واعتراني الذهول، فلو كنت تفعل أقل من هذا الفعل في الكرم لدهش به الملك الحفيظ الكاتب الذي يكتب الحسنات والسيئـات. سبحـان الله! الملك موكل بالحسنات والسيئـات لا يدهش، أعطاه الله القـدرة فيحصي أعمال النـاس، ويكتب الحسنات والسيئـات ولا يصيبه خوف ولا وجل ولا حيـرة ولا ذهول ولا اندهاش، إنما يندهش مثل المتنبي وأمثاله من البشر الضعـاف المحاويج المهازيل، أما ملك يخلقه سبحانه للحسنات والسيئات، وملك يخلقه للقطر ليكيل القطر، وملك يخلقه للوحي مثل جبريل عليهم السلام أجمعين، فإن الله يعطيهم من القدرة ويعطيهم من الثبات، ومن القوة ما لا يعطيه لغيرهم.

يقول سبحانه في جبريل: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾[النجم:٦] شدة، فتوافق، توافق الأوصاف- حسب بعض التفاسير- الجسدية، فلا تباين في الأعضاء، ونقل في الصحيح أن جبريل رآه ﷺ بصورته التي خلقه الله عليها له ست مئة جناح، كل جناح سد ما بين المشرق إلى المغرب، فأغمي على رسولنا عليه الصلاة والسلام.

وهذا تجوّز غير مقبول ومرفوض ومردود على شاعرنا، ونعوذ بالله من ذلك.

ويقول في بيت آخر:

نفذَ القضاءُ بِمَا أردتَ كأنَّه ... لكَ كلَّما أزمعتَ شيئاً أزمعَا

يقول: القضاء نفذ بما أردت أنت، فأنت إذا نويت شيئاً جاءك القضاء مثلما نويت، وهذا كذب وبهتان وخذلان، الإنسان أحياناً يريد أن يكسب شيئاً فلا يكسب، فيقول للممدوح: القضاء طوع أمرك وأبشر.

من هو؟ أهو نبي مرسل يتكلم عن علم الغيب؟ فهذا خطأ وكذب وخذلان وتجاوز فننبه عليه.

ويمدح آخر، فيقول:

مَنْ يزُرْه يزرْ سليمانَ فِي المُلْـ ... ـكِ جلالاً ويوسُفاً فِي الجَمَالِ

يقول: زارك أيها الملك، في الملك فكأنك سليمان بن داود عليه السلام الذي ملك الدنيا والذي يقول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص:٣٥]، والذي أجرى الله له الريح، وسخر له الجن والإنس، والذي أعطاه سبحانه وتعالى من العطاء ومن الكنوز ما الله به عليم.

(**ويوسُفاً فِي الجَمَال**) يوسف الذي أعطاه الله شطر الحسن. فانظر إلى هذا التطاول وهذه المبالغة، يقول: أنت كأنك سليمان بن داود في قوتك وملكك، علماً

بأن أحداً لا يعرف هذا الممدوح، ويقول: (**يوسُفًا فِي الجَمَالِ**) وتجد أنك إذا رأيت هذا الممدوح لا تأكل التمر ثلاثة أيام، انظر فقط هكذا خذلان وتجاوز وطغيان.

وإنما المقصود ألا يغتر الناس بشعر هذا العبقري؛ إذ إنه لا يخلو من سقطات وفلتات وجدت في ديوانه وإن كان قالها فقد علمها الله، كما يعلم من دسّها في ديوانه إن كانت كذلك.

obeikandl.com

obeikandl.com

حكم ودرر

عقدت في كتاب المقامات مقامة للمتنبي تستطيع أن تقول: إنها مقابلة معه، هو يجيب بالشعر ونحن نسأله بالنثر وهذه المقامة بينت لنا شخصيته وأظهرت لنا طموحه، نسأله نثراً فيجيبنا شعراً.

السؤال الأول: من أنت؟ هي البطاقة الشخصية، نسأله عن نفسه، وإنما ركزت على المتنبي؛ لأنه صار له وقع في الأدب العربي وصار هو قائد زمام الشعر والحكمة، وكثير من الشراح قدموه أو مِنَ النقاد مَنْ يجعله إمام هذا الفن؛ فن

الشعر وفن الحكمة، وسموه تسميات: كملك الشعراء، إمبراطور الشعراء، ووقع له من الحظ والشيوع، حتى إنه ما شرح ديوان مثلما شرح ديوانه، قلت: من أنت؟ قال -يجيبنا بشعره-:

أنا الذِي نظرَ الأعمىَ إلَى أدبِي ... وأسمعَتْ كلماتِي مَنْ بِهِ صممُ

قلت: أما ترى السفهاء ينالون العظماء؟ قال:

وإذَا أتتكَ مذمَّتِي مِنْ ناقصٍ ... فهيَ الشهادةُ لِي بأنِّيَ كامِلُ

تستطيع أن تقول نثراً كثيراً بدلاً من هذا البيت، لكنه لن يحفظ ولا ينقل، ولا يستشهد به، تستطيع أن تقول في محاضرة: يا إخوة، إذا رأيتم الناس السفهاء ورأيتم التافهين ينالون الكرماء والعظماء والأخيار والعلماء فهذه شهادة صدق لهؤلاء العلماء أنهم على حق وعلى خير؛ لأن الذين نالوهم هم أهل سوء، وأهل سفه وأهل طيش، ثم تبدأ في هذه المعاني، وهو يختصر لك هذا كله ببيت.

فلذلك إذا رأيت أهل الانحراف ينالون أحداً، فاعرف أنه من أهل الاستقامة، وإذا رأيت أهل الاستقامة يجمعون على انحراف شخص فاعرف أنه هو من أهل الانحراف... وهكذا.

قلت: أراك تعبت في طلب المجد! قال:

وإذَا كانتِ النفوسُ كِباراً ... تعبَتْ فِي مرادِها الأَجْسامُ

ليس الكبر الحسي، إنما كبر المعنوي، يعني: النفس كبيرة، النفس لها طموح، لها همة، فلا يرضيها القليل مثلما يقول هو:

إذَا غامرْتَ فِي شرَفٍ مرومِ ... فلا تقنَعْ بمَا دونَ النُّجومِ

اجعلها حرب نجوم، الحياة غِلَاب، مثلما يقول أحمد شوقي:

وما نيلُ المطالبِ بالتَّمنِّي ولكنْ تؤخذُ الدُّنْيا غِلابا

فلن يهدي لك المجد أحد على طبق من ذهب، ولا يمكن لأحد أن يعطيك النجاح ويرسله لك رسالة هدية، النجاح عرق وجهد وسهر وتعب، سواء في العلم أو في الدنيا، أو في المال، أو في أي حرفة أو مهنة أو فن أو عمل، فهذا هو، يقول: وسبحان الله ترى منازل الناس في الجنة على حسب هممهم في الدنيا، بعضهم لا يرضى بالقليل، أنا رأيت من بعض الناس لا يرضى بحفظ ثلثي القرآن أو نصف القرآن، بل لا بد من أن يحفظه كله، وإذا حفظه قرأ القراءات السبع، وتجده في الحديث لا يكتفي بالأربعين النووية، فنفسه كبيرة، حتى تجد عنده أحياناً من الضمور والهزال في الجسم، لكن له همة تمر مر السحاب ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨] ولهذا يقولون: إن أبا إسحاق الشيرازي العالم الشافعي هذا الرباني كان نحيف الجسم، يقولون: إنما هو جلد على عظم، قالوا: لماذا هذا النحف والهزال؟ قال: والله ما من درس أدرسه طلابي إلا أكرره مئة مرة قبل أن أدرسه، وإني أعيد القياس الواحد ألف مرة، وكان يسهر الليالي، حتى حفظ علوماً كثيرة.

رآه شاعر فإذا هو جلد على عظم، فقال:

تَـرَاه مِنَ الذكاءِ نحيلَ جسمٍ عَلَيهِ مِنْ توقُّدِه دَلِيلُ

إِذَا كانَ الفتَى ضخمَ المعالِي فليسَ يضرُّه الجسمُ النحيلُ

وهذا مثل قول المتنبي يقول لسيف الدولة:

كفَى بجسمِي نحُولاً أنَّنِي رجلٌ لولا مخاطبَتِي إيَّاكَ لَمْ ترنِي

يقول: إنك تسمع صوتي وإلا فأنا نحيف، كان نحيفاً، فقط ثياب على عظام وعصب؛ لأنه مشبوب وعبقري، لكنه صرفه في غير الوجهة التي ينبغي أن تكون،

صرفها للدنيا وللظهور وللشعر، بخلاف همة مثل الشافعي وابن تيمية كيف صرفوها للآخرة ومرضاة الله، لكن سيقول لي سائل: فما دام أنك تؤمن بهذا وترى أنه صرفها في الدنيا، فلماذا أشغلتنا بهذه الأبيات من شعره؟

قلت: لنأخذ الحكمة كما أخذها العلماء، ونأخذ منه المعاني، وتنفعنا في دعوتنا، وفي رسالتنا، وفي محاضراتنا، وفي دروسنا، كما استفاد من شعره العلماء الراسخون الربانيون في كتبهم وفي دروسهم، فالرجل -بلا شك- دقيق النظر وحكيم، ما تجد عالماً يأتي بمثل هذه المعاني ولو حفظ الكتب الستة؛ لأنها مواهب يقسمها الله ﷻ، يعطي هذا فقهاً، وهذا حديثاً، وهذا خطابة، وهذا أدباً، وهذا شعراً، وهذا حكمة، وهذا مالاً، وهذا جاهاً، وهذا شهرة، يوزعها سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

فهنا يقول: إذا كانت نفس الإنسان كبيرة ولها طموح ولها همة فإن جسمه يتعب، يتعب عالي الهمة، تجده يريد الصلاة في الليل ويحضر صلاة الجماعة من أول الصف، ويحفظ القرآن، ويبر والديه، ويزور أرحامه، ويدعو إلى الله، ويصلح بين الناس، ويضيف، وينفق، ويؤلف، ويدعو، ويذكر الله سبحانه وتعالى كثيراً، أما الخامل فلا شيء، عطل الحقوق، جثة هامدة: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١]، يخرج للمسجد وإذا الناس خارجون، تقول له: زرت الوالدة؟ قال: سأزورها، سمعت أن أخبارها طيبة، ولا يصلح بين أحد، ولا يهتم بأحد، ولا يضيف أحداً، ولا يحفظ شيئاً من قرآن ولا حديث، فهو يعيش هكذا، فهم أصفار.

قلنا له: أما ترى المجد يُتعب؟

لو كان غيره يجيب عن السؤال لقال: نعم، المجد يتعب كثيراً، ويسهر الإنسان، ويجعل الإنسان دائماً متلهفاً، ودائماً سهران، ودائماً يواصل جهده وكفاحه، فهو يعرق وهو يبذل من الطاقة. وهو اختصر ذلك، فقال:

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كلُّهمُ الجودُ يفقرُ والإقدامُ قتّالُ

يعني: لو أن الأمور تتحصل بلا مشقة لكان الناس كلهم أخياراً وأبراراً، لكن انظر في الكرم الآن تجد الكرماء قليلاً، لماذا؟ لأن إنفاق المال نذير بأنه يتلف المال، وأيضاً كانوا شجعانًا، لكن الشجعان قليل، لماذا؟ لأن الشجاعة توصلك إلى أن تفقد نفسك، الإقدام قتّال، يعني: أنك تخاطر بنفسك، فيقل أهل المجد بسبب هذه المشقة.

قلت: أرأيت السلف يتأثرون عند سماع القرآن ونحن لا نتأثر؟

لو كان غيره يجيب لقال: السلف على خير وعلى بر، وهم أخيار وأبرار، ونحن ابتعدنا عن الصواب والسنة، وعن التقوى والورع، والخشية والمراقبة. لكنه قال:

لا تعذلِ المشتاقَ فِي أشواقِه حتّى يكونَ حشاكَ فِي أحشائِه

يقول: إذا رأيت إنساناً مشتاقاً مولهاً، إنساناً يعيش معاناة، وتجد عليه آثار هذه المعاناة فلا تعذره، فقلبك ليس في قلبه وأحشاؤك ليست في أحشائه، هو يعيش معاناة أنت لا تدري بها، فأنت لم تعش التجربة، فلا تلمه.

قلت: أرى المنافق أحياناً يبكي؟ فبعض الناس يتصنع البكاء، حتى بعض السلف يقول: إن المنافق يرسل دموعه متى شاء، أما المؤمن فتغلبه دموعه. قال:

إذا اشتبكَتْ دموعٌ فِي خدودٍ تبيَّنَ مَنْ بكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

يقول: سوف يظهر مع الأيام الدمع الصادق من الدمع الكاذب، وتجد من حالة الإنسان وهو يبكي أنه صادق أو كاذب، بعضهم يفتعل، لكن الدمع الصادق يغلب الإنسان، تجد ما افتعله الإنسان، له وقع، لكن دمع المجامل الكذاب ينكشف مباشرة، تجد على آثاره التمثيل، وتجد أنه يهول، وتجد أنه يريد أن يحسن من صورته ومن مظهره أمام الناس.

قلت: أرى واحداً من الناس يعدل أمةً في الفضل؟

بإمكانــه أن يقول: نعم لأن الله سبحانه وتعالــى يعطي بعض المواهب لبعض الناس فيفوق كثير من الناس بما عندهم من العلم أو العقل أو القدرة أو الموهبة. لم يقل هذا، ولكن قال:

وإن تـفـقِ الأنــامَ وأنــتَ مـنـهُـمْ   فـإنَّ الـمـسـكَ بـعـضُ دمِ الـغـزالِ

هــو يمدح سيــف الدولة، يقول: أنت أصلاً من الأنــام، وأنت من البشر مثلهم وهــم مثلك، خلقت مــن آدم وحواء، وهم خلقوا من آدم وحــواء، وأصلك من طين وهم من طين، لكنــك تفوقت عليهم، فالمسك الذي يتهاداه الملوك وهو من أغلى ما يكون في العالم من دم الغزال.

قلت: أرى لك حساداً كثراً؟

فيقول يرد على حساده:

إنِّــي وإنْ لـمْـتُ حـاسـدِي فمـا   أنــكــرُ أنِّـــي عـقـوبـةٌ لَـهُـمْ

يقول: صحيح أني ألوم حاسدي لكن الله أرسلني عقوبة لهم، الله عذبهم بي، يريد أن يشفي جراحه في هذه المسألة، ويقول في موطن آخر:

أبدُو فيسجدُ مَنْ بالسوءِ يذكرُنِي   فـلا أُعـاتـبُـه صَـفْـحـاً وإهـوانَـا

هــو لم يسجد له أحــد، لكنه يريــد أن ينتصر، تحس حين تقــرأ الديوان أنه مقهــور، وأنــه مظلوم، وأنــه ما أخذ حقه من المجــد، وأنه شخصيــة منسية، وأن الواجب على الناس أن يعيشوا قضيته، ويعترفوا به، ويكون الأول.

يقول: أصفح عنهم ولا أهينهم ولا أعاتبهم؛ لأنك إذا أتيت إلى الحاسد وتركته وأخملتــه ولم تلتفت له قتلته موتــاً؛ ولذلك إذا أتتك قصيدة هجاء فاتركها، وكلمة

سب فلا ترد عليها، ومقالة تتعرض لك فلا تحاول أن ترد عليها، وكلمة سفيه تبدر منه فتغافل، فإنك تميته بهذه الطريقة، ويبقى عرضك مصوناً وتبقى مكانتك محفوظة، والناس يقدرون لك صبرك.

قلت له: بعض الناس غلب عليه سوء الظن فتجده لا يرى إلا بنظارات سوداء. شاكّ في الناس، يرى الناس عنده عقدة مؤامرة ويرى الناس متآمرين عليه، متربصين عليه، وهو دائماً مظلوم، حتى إذا ذهب إلى المحكمة قال: القاضي متربص بي وإلا ما قال كلمة الحق، لو قال كلمة الحق لكان عرف، وإذا قابلته قال: ما أعارني انتباهه، وإذا بايع إنساناً قال: غشاش، فالناس كلهم يغدرون إلا هو، والناس يظلمون إلا هو، فالمتنبي يجيب:

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُهُ وصدّقَ ما يعتادُه مِنْ توهُّمِ

فهو لسوء عمله يتصور أن الناس سيئون، ويصدق الوهم الذي يحمله فيقع في الخطأ وهو واهم؛ لأنه ما اتبع الحقيقة وما وقف مع الحق.

نطرح على المتنبي سؤالاً آخر في هذه المقابلة، فنقول: القوميون العرب يهددون إسرائيل من خمسين سنة؟

هو يجيب فيقول:

وإذَا ما خَلا الجَبانُ بأرضٍ طلبَ الطعنَ وحدَه والنِّزَالا

إنسان ليس عنده من يبارزه، فقط عبر الإذاعات حتى يقول البردوني في العرب:

وقاتلَتْ دونَنا الأبواقُ صامِدةً أمَّا الرجالُ فماتُوا ثَمَّ أو هربُوا

فقط الإذاعات والبيانات والتنديد والشجب، يقاتل الأشباح ويقاتل الهواء، لكن إذا جد الجد فلا شيء.

قلت: أعرف أغنياء ألسنتهم سخية وأيديهم بخيلة؟

قال يجيب:

جودُ الرجالِ منَ الأيدِي وَجودُهُمُ مِنَ اللسانِ فلا كانُوا ولاَ الجودُ

بعض الناس جيد باللسان سخي، يقول: نتبرع وأبشروا بخير، والرقبة سدادة، ولا يهمكم يا إخوان، وإذا جاء الجد جاء بسبعين عذراً، لا يعطيك شيئاً ولا ترى شيئاً، فهذه مشروعات شفوية، حتى إن بعض البخلاء يلوم الكرماء، إذا تبرع إنسان قال: هذا رياء وسمعة، الإخلاص لك أنت، وإذا ألقى محاضرة قال: أشغلونا يا أخي، الدين معروف مفهوم، فهو دائماً يتصيد العيوب، وهؤلاء يسمون أعداء النجاح، فهذا يرد عليهم.

قلت: من يتأمل الشريعة يملكه حبها؟

قال هو:

وما كنتُ ممنْ يملكُ الحبُّ قلبَه ولكنْ مَنْ ينظرْ عيونَك يعشَقِ

فإنه يقول: أنا من عادتي لا أملك الحب، لكنه لما غلب الجمال والحسن، فقد أسر في حبها. فقط الإنسان يتأمل في مقاصد هذا التشريع العظيم، وهذه الحكم في الكتاب والسنة، وهذا الدين الخالد، وهذه الرسالة الربانية في كل ناحية من مناحي الحياة، والله إنه يحبها ويعشقها قلبه، ويسير وراءها في كل شأن: في المال، في الأسرة، في الولاية العامة، في العلاقات الاجتماعية، في القضاء، في الحياة الزوجية، في حياة الطفل، في الأخلاق، في الآداب، في السلوك، في كل أموره، حتى مع البهائم والحيوانات، تقول: سبحان الله! أشهد أنها شريعة من عند الله.

قلت: أسمع لأعداء الإسلام شبهات يثيرونها عنه؟ يثيرون شبهاً ضد الإسلام، لكن أبشركم الإسلام يجتاح العالم، الدين الأول هو الإسلام، أكثر كتاب يوزع الآن

في العالم وينشر هو القرآن الكريم، الإسلام هذا دين من عند الله يقبله أهل العقول، ولهذا يقول أحد العلماء: أبشروا أيها المسلمون، وأملوا، فأفق الإسلام أوسع من أوطانكم، وغد الإسلام أطول من أراضيكم، الإسلام أكبر من هممكم، الإسلام سوف يبقى أمام الزحف، ولذلك يقول هو يجيب هنا:

وللهِ سرٌّ في علاكَ وإنَّما   كلامُ الورَى ضربٌ من الهَذَيانِ

يقول: هو كذب كلام الورى في هذا الدين الخالد.

قلت: فما رأيك في الدنيا؟

الآن فلسفته في الدنيا، ما هو قوله؟ قال:

لحَى اللهُ ذِي الدنيا مناخاً لراكبٍ   فكلُّ بعيدِ الهَمِّ فِيها معذَّبُ

يقول: لا بارك الله فيها، كل إنسان له همة عالية يعذب فيها تعذيباً؛ لأنها دنيا غدارة غرارة، لا يسكن فيها إلا الجبناء، حتى يقول هو في مشهد آخر:

تصفُو الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ   عمَّا مضَى مِنْها وما يتوقَّعُ

ولمَنْ يغالطُ فِي الحقائقِ نفسَه   ويسومُها طلَبَ المحالِ فتقنَعُ

يقول: والله لا تصفو الحياة إلا لجاهل أو غافل، جاهل بآثارها، أو غافل عن مصائبها، وغافل عما مضى منها، فلا يفكر في شيء؛ وإلا لو عرف الإنسان حقيقة الحياة لارتدع؛ لأن صاحب العقل تجده متوجساً دائماً خائفاً يفكر في الحساب ولقاء الله ﷻ لا يريد أن يخطئ، إذا أخطأ ندم، إذا أذنب تأسف، إذا عثر تاب، أما هذا المجرم، فالذنوب عنده مثل الطاعات، ويضحك حتى يقول:

ذُو العقلِ يشقَى فِي النعيمِ بعقلِه   وأخُو الجهالةِ فِي الشقاوةِ ينعمُ

تجد العاقل وهو في النعيم يريد عملاً؛ فإذا فاتته تكبيرة الإحرام أقام الدنيا وندم، ما صلى الفجر في جماعة، قال: الله المستعان، حسبنا الله ونعم الوكيل،

بعض السلف كان يمرض شهراً إذا فاتته تكبيرة الإحرام في الجماعة، بعضهم تفوته صلاة الفجر فيبقى مريضاً، الآن يقول أحدهم يضحك ويمزح: يا إخوان، ما انتبهت اليوم إلا وصليت الساعة العاشرة، سبحان الله! يا إخوان النوم، في الشتاء بركة؛ لأن النوم في البرد طيب، ولا درى أنه ارتكب إثماً! هذه المصيبة، تقول له: كم قرأت؟ قال: والله يا أخي، سبحان الله من زمن ما قرأت المصحف أقرأ يوم الجمعة، يا أخي، الحمد لله الدين هذا طيب يقول: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل:٢٠] ولو آية يا أخي، لكن أموره في الدنيا كما يقول ابن القيم: بعضهم يستخدم أنواع الإنكار الثلاثة في الدنيا: القلب واللسان واليد، فهؤلاء أموات أصفار، يقول:

عددُ الحصَى والرملِ فِي تعدادِهم ... فإذا حسبْتَ وجدْتهم أصْفارَا

مِنْ كلِّ مفتونٍ علَى قيثارةٍ ... كلاًّ وجدتَ بفنِّه بيطارَا

قلت: ألا تحتاج الدنيا إلى مجاملة؟

قال: نعم.

ومنْ نكدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أنْ يرَى ... عَدوًّا لَه ما مِنْ صداقتِه بُدُّ

يقول: من شؤم هذه الحياة نعوذ بالله منها، ومن نكدها: أنك تبتلى بإنسان عدو لكن تجامله حتى تسير أمورك، فلا صفاء إلا في جنات النعيم، اطلبوا داراً غير هذه الدار، اطلبوا دار الوفاء، دار الصفاء، دار الخلود، لا مرض فيها، لا نصب، لا وصب، لا همّ، لا غم، لا حزن، هذه:

دارٌ متَى ما أضحكَتْ فِي يومِها ... أبكَتْ غداً قبحاً لهَا مِنْ دارِ

قلت: كان للعلماء قدر عند الناس واليوم جهل قدرهم؟

قال:

أتـىَ الـزَّمـانَ بـنُـوه فِـي شبيبتِه   فـسـرَّهُـم وأتـيـنَـاه عـلَـى هـرمِ

يقـول: زماننا هذا مدبـر، العلم فيه والمعرفة والكـرم والجود قليل، هذا في القرن الرابع، فكيف لو أدرك زماننا، حتى يقول لبيد كما في الصحيح:

ذهـبَ الـذيـنَ يعـاشُ فِـي أكنافِهم   وبقيتُ فِـي خلْفٍ كجلدِ الأَجْـربِ

قالـت عائشة: «كيف لو أدرك زماننا لبيـد» قال عروة: كيف لو أدركت زماننا عائشـة؟! قال الزهري: كيف لو أدرك زماننا عـروة؟! فأخذ الرواة يمشون به إلى أن وصلـوا إلى أبـي نعيم الفضل بن دكين وغيره من العلماء، أقول: كيف لو أدركوا زماننـا نحـن، فيقول: كان قبلنـا أجواد كثير والأخيـار، أما نحـن فأتينا الزمان، فسرهم وأتيناهم على هرم.

قلت: أرى العظماء لا يبالون بالمصاعب؟

قال:

إذا اعـتـادَ الـفـتَـى خـوضَ الـمـنَـايا   فـأَهْـونُ مـا يـمـرُّ بـهِ الـوحـولُ

يقـول: إذا كان الإنسـان معتاداً علـى المصائب والأزمـات والمنايا والموت، فأهـون شـيء الوحل هذا الطين الذي يمشي فيه، فتجـد بعض الناس همته عالية قوية، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[يوسف:١٨]، ابن تيمية أتته حمى هزته، فدخلوا، قالوا: يا أبا العباس، ماذا أصابك؟ قال:

تـمـوتُ الـنـفـوسُ بـأوصـابـهـا   ولَـم يَـدرِ عُـوَّادُهـا مـا بِـهَـا

ومـا أنـصـفَـتْ مـهـجـةٌ تـشـتَـكِي   أذاهَـا إلَـى غـيـرِ أحـبـابِـهـا

الشكوى لله سبحانه وتعالى.

فلذلـك يقول هنا: (إذَا اعتـادَ الفتَى) إن كان الفتى معتاداً على المنايا وعلى الصعوبـات فبقية الأمور عنده سهلة، حدثوني عن رجل من الأعيان، له أولاد كثر،

ومشهـور عنه الصـلابة، فجاءتـه مصـائب مات له أبنـاء في حوادث سيارات، يقول بعضـ المشايـخ: والله إنا جالسون في مجلس معه والقهـوة تدار وهو يذكرنا بالله ﷻ يقـول: كأنـه جبل، قال: ودخل ابنه الذي أتي مـن المستشفى، قائلاً: أخي قتل في حادث سيارة ومات، قال: الله المستعان، إنا لله وإنا إليه راجعون، قال: وإذا به صابر، قال: أين أنتم؟ قال: في المستشفى، قال: أنهوا الإجراءات وأعلموني، قال: وما التفت لهم، قال: يا إخوان، سبحان الله قضاء وقدر.

فهذا متعود عنده صبر وعنده احتمال وعنده قوة، لكثرة المراس.

قلت: بعض الناس يستفيد من نكبات الآخرين؟

يقول هو يرد:

كذا قضتِ الأيـامُ ما بينَ أهلِها   مصـائبُ قـومٍ عنـدَ قـومٍ فـوائِـدُ

فالعاقل الحصيف يستفيد من المصائب التي تقع عند الآخرين، إن مصائب الآخرين التي تكرهها تثمر لك حكماً وتجارب أنت ما قمت بها، والسعيد من اتعظ بغيره، ولهـذا يقول سبحانه وتعالـى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ ﴾ [الأحقاف:٢٧] يقول: انتبهوا أما ترون القرى كيف وقع فيها ما وقع من بين يديها وما خلفها وجعلناها موعظة.

فأحيانـاً تقع مصيبة عند قوم، لكن الجيران منهم وبعض الناس يستفيد من هـذه المصيبة فـي أن يجعلها فائـدة يستثمرها وتجربـة وعبرة ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر:٢] ولذلـك ذكر الله سبحانه وتعالـى أن أهل الأبصار يعتبرون بمصائب الآخرين.

قلت: ما رأيك في الزمان؟

قال:

ربَّما تحسنُ الصنيعَ لياليـ ـهِ ولكنْ تكدّرُ الإحسانا

يقول: الأيام تأتي لها حلاوة أحياناً، أحياناً يأتيك منصب، أحياناً يأتيك مال، تبشر بولد، تبشر بثروة، ولكن بعد مدة وإذا بك يأتيك حادث سيارة في الولد، ومرض في الجسم، والثروة ذهبت والرصيد ذهب في الأسهم لم يبقَ شيء، بشرت بولاية مثلاً ومنصب وإذا برقيات التهنئة، قليلاً وإذا العزل، قال: الله المستعان، يقول:

تَولاَّها وليسَ له عدوٌّ وفارقَها وليسَ لَه صديقُ

يقولون على ذكر الولاية: تولى القضاء قاضٍ من الظلمة الكبار فضاق الناس في دمشق في القرن الخامس، فأتى أحد الشعراء فقال:

ولمَّا أن توليتَ القضايَا وفاضَ الظلمُ مِنْ كفيكَ فيضَا

ذبحْتَ بغيرِ سكينٍ وإنَّا لنرجُو الذبحَ بالسكينِ أيضَا

لأنه يقال: من تولى القضاء، فقد ذبح بغير سكين.

obeikandl.com

الكلمة الأخيرة

يقول أبو الطيب المتنبي:

كفَى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافِياً

وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانِيا

تمنيتَها لما تمنَّيتَ أن ترَى

صدِيقاً فأعيَا أو عدوًّا مداجِياً

يقول: إذا وصلت إلى مرحلة أن تتمنى الموت، فقد بلغ بك الداء مبلغاً عظيماً والوجع والضنى والمرض والألم إلى أن طلبت أن يكون علاجك من ذلك هو الموت، فإذا أصبح الإنسان في مرحلة يطلب الموت فهو في أشد البلاء، وحسب الموت فظاعة ورزية أن يكون أمنية يتمناها الإنسان.

ثم قال: لقد وصلت إلى حالة من الإحباط إلى درجة أنك لم تجد حتى صديق، فضاقت عليك الأرض بما رحبت وأصبحت الحياة ضيقة عليك، وأغلقت عليك الأفق وانغلقت عليك الآمال، حتى ما تلقى صديقاً ولا عدواً مداجياً، حتى العدو الذي يستخدم معك المجاملة ما تلقاه، فما ثمة إلا عداء ظاهر مكشوف، حينها إذا انقطع الإنسان وأصبح بلا صديق ولا رفيق ولا مؤانس فإن الحياة تضيق عليه، لكنه نسي ملمحاً آخر أنه إذا ضاقت عليك الدنيا وقطعك الأصدقاء والخلان والأحباب والأصحاب بقي معك الواحد الأحد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فالزمْ يديكَ بحبلِ اللهِ معتصماً ... فإنَّه الركنُ إن خانَتْك أركانُ

فحسب الإنسان ربه سبحانه وتعالى وهو كافيه إذا توكل عليه وصدق في الإيمان به جل في علاه.

يقول في هذه القصيدة: إن بعض الناس يطلب الموت، فهذا أبو العلاء المعري تلميذه من المعجبين به، يقول:

فيا موتُ زُرْ إنَّ الحياةَ ذميمةٌ ... ويا نفسُ جِدّي إنَّ أمرَكِ هازلُ

يقول بعدها:

إذَا عيّر الطائيَّ بالبخلِ مادرٌ ... وعيّر قساً بالفهاهةِ باقلُ

الطائي يقصد حاتم الطائي، يقول: إذا وصل الحال عند الناس أن يعيب مادرٌ أبخل العرب حاتماً الطائي الذي هو أكرم العرب، إذا وصل الحد إلى ذلك وصار السفهاء يتطاولون على العظماء وأن التافهين ينالون من الأخيار الصالحين المصلحين فعلى الدنيا السلام.

وباقل من أعيا الناس لا يستطيع الكلام، يصاب بالحصر وبالإعياء والانقطاع إذا تكلم، وقس بن ساعدة خطيب العرب في الجاهلية، الذي إذا تكلم بدَّ الخطباء

وغلبهم وأفحم كل الأدباء، فيقول: إذا وصل الحال إلى أن باقلاً هذا يعيب قساً بالفصاحة ويقول: أنت لست بفصيح يا قس، فعلى الدنيا السلام.

وقالَ الدُّجَى للشمسِ فأنتِ كسيفةٌ وقالَ الدُّجَى للبدرِ: وجهُك حائلُ

يقول: إن الليل إذا قال للشمس: أنت كسيفة وهو ليل أسود بهيم والشمس ساطعة لامعة. والدجى وهو ظلمة الليل قال للبدر: ليس فيك نور؛ فعلى الدنيا السلام.

إذا وصل الحال إلى هذا، فما عاد للإنسان قيمة وأصبح هناك أناس لا يقدرون صاحب الموهبة ولا يقدرون من له مكانة ولا من له مناقب عالية، لا يقدرون الشيخ الكبير، ولا المسؤول المقسط العادل ولا العالم الرباني ولا حامل القرآن ولا الخيّر ولا العابد ولا الجواد.

وعلى ذكر تمني الموت، فإن أهل النار - والعياذ بالله - إذا دخلوا النار واشتد عليهم حرها تمنوا الموت: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] من شدة حر النار والعياذ بالله، من شدة العذاب والنكال وما وجدوه هناك من حريق وسعير وزمهرير، قالوا لمالك الذي هو خازن النار: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] يقولون: نسألك يا مالك، أن تسأل الله أن يقضي علينا فيميتنا؛ لأن الإنسان فيها لا يموت فيرتاح ولا يحيا حياة كريمة طيبة، ولا يخرج منها، وهذا عذابه سبحانه وتعالى الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، فالواجب على الإنسان أن يخاف ويخشى هذا ويأخذ كل العدة؛ لينجو من النار، وذلك بطاعة الله وذكره، وبالتوبة النصوح، بالاستغفار، بفعل الحسنات، بترك الخطايا والذنوب، بالاستعداد للقاء الواحد الأحد.

ولذلك يقول مرة أحد الأخيار، بعدما انقطعت به الحال وكثرت عليه الديون وخانه أصدقاؤه وأصاحبه، فمر بمقبرة:

ألا موتٌ يباعُ فأشتريه فعيشُ حياتِنا لا خيرَ فيهِ

فكأنه يطلب الموت فيشتريه منه.

ألا رحمَ المهيمنُ نفسَ حرٍّ تصدَّقَ بالوفاةِ علَى أخيهِ

يقول: جزى الله خيراً من تصدق علينا بالموت، حتى نخلص من هذه الحياة.

يقول المتنبي: (**كفَى بكَ داءً أنْ ترَى الموتَ شافِياً**).

إذا وصلت إلى هذه الحالة فقد وصلت إلى حالة ما بعدها حالة من المرض، ومن الإعياء ومن المصائب ومن النكبات، حتى يصل بعض الناس إلى درجة الانهيار والانتحار، تغلق أمامه الأبواب، أكثر ما يكون هذا عند من يشك في قدرة الله ومن يقل الإيمان عنده، ومن لا يرجو ثواب الله ﷻ، ومن ليس عنده عمل صالح، فيصل إلى درجة الله أعلم بها، ولكن المؤمن بالله لا ينتحر؛ لأنه يعرف أن الله يغفر الذنوب وأن مع العسر يسراً وسيجعل الله بعد عسر يسراً، وأن هناك فرجًا وأن هناك غداً مشرقاً، وأن هناك أملاً، وأن هناك فتحاً قريباً بإذن الواحد الأحد، لكن هذا الذي ييأس من رحمة الله ويقنط من روح الله ويصيبه التشاؤم، وذلك بسبب بعده عن التدين وعن الإيمان، تجده يقدم على الانتحار، وأحياناً يوجد مثل هذا الفعل من بعض الصالحين، فقد يتمنى الموت، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تمنى، وإلا فإن في الصحيحين يقول النبي ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، إن كان خيراً فلعله أن يزداد، وإن كان على سوء فلعله يستعتب** -يعني: يتوب- **ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً**» فنهى النبي ﷺ عن تمني الموت عند الرخاء، فالأصل في الإنسان كلما ازداد عمره كان خيراً له؛ لأنه يصلي الصلوات الخمس ويذكر الله ويقرأ القرآن ويفعل الخير. فتضاف له حسنات، وإذا كان الإنسان مقصراً فلعل الله أن يمنّ عليه بتوبة وباستغفار فيعود إلى الله، لكنه يجوز للإنسان عند العلماء في الفتن، لكنه لا يطلقها، وإنما يقول: اللهم، أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي.

أمـا عمر بن الخطاب فقد صح أنه تمنى ﷺ لما خاف أن يضعف في العدل بين الرعية، وربما يقع في فتنة أو مشكلة لا يستطيع القيام بها، قال ﷺ: اللهم، إنـه رقَّ عظمي وشـاب رأسي فاقبضني إليـك غير مفرط ولا مفتـون، اللهم، إني أسألـك ميتـة في بلـد رسولك وشهادة فـي سبيلك. فيقـول له أصحابـه: يا أمير المؤمنين، تطلب الشهادة وتشترط أن تكون في بلد رسول الله ﷺ! - لأن المعلوم أن مـن يطلب الشهادة يطلبها في الثغور في ساح الوغى في ملاقاة الأعداء- قال: هكذا سألته وأسأل الله أن يلبي لي ما سألت.

فرزقه الله الشهادة في صلاة الفجر في المحراب، وهو إمام المسلمين، وهو طاهـر في كل وقت ﷺ، في عدله وهو يصلـي بالناس، وفي الركعة الأولى وقيل الثانية، وفي بلد رسول الله ﷺ، طعنه أبو لؤلؤة المجوسي مولى المغيرة.

مولَى المغيرة لا جادَتْك غاديةٌ ... من رحمة الله ما جادت غواديها

قُلْ للملوكِ: تنحُّوا عَنْ مناصبِكم ... فقدْ أتَى آخذُ الدُّنْيا ومعْطِيها

فالشاهد أنه ﷺ سأل ذلك.

والتعلق بالحياة جانب آخر. فمن لا يريد ملاقاة الله فهو عاصٍ ومسرف على نفسـه وخـادم للدنيا وهذا دليل علـى الإفلاس والإحباط، حتـى قال الله ﷻ عن اليهـود: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة:٩٦] يعنـي أنهم أكثر حرصاً على الحياة حتى مـن وثنيي العرب مشركي العرب، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة:٩٦] يقـول: يتمنى أحدهم أن يبقى في الحياة ألـف سنة، ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة:٩٦] افرض أنه عمَّر ألف سنة، المعذب سوف يعـذب، إذا مات فسوف يعذبه ربه، هل يمنعـه أن يعيش ألفـاً أو ألفي سنة، أليـس المصير إلى الله؟ أليـس الملجأ إليه؟ أليست النهاية الموت؟

فلذلك يقول: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

أما على ذكر الموت فإن للناس توقيعات في الموت للأبرار وللفجار، للمؤمنين وللكفار، كلمات صادقة في سكرات الموت؛ لأن سكرات الموت يصدق الإنسان فيها، فينتهي فيها الطلاء، ينتهي البهرج، ينتهي الزخرف، ينتهي الدجل والخرافة والكذب، يبدأ الإنسان يصدق، سكرة الموت أو ساعة الموت هي ساعة الصفر التي يجبن فيها الشجاع ويضعف فيها القوي ويفتقر فيها الغني، إلى درجة أن فرعون قال وهو ذاك الطاغية لما رأى الموت وهو في البحر: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] ولم ينفعه ذلك؛ لأنه قال ذلك في الوقت الضائع.

فهنا سيد الصالحين وسيد الأخيار محمد ﷺ يقول في سكرات الموت: «**بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى**» وقال: «**اللهم أعني على سكرات الموت**» وقال: «**لا إله إلا الله إن للموت لسكرات**» هذا كلام أصدق الناس أجمعين ﷺ.

ونقل عن الصالحين مثل الشافعي الإمام المعتبر رضي الله عنه وأرضاه لما حضرته سكرات الموت يقول:

ولمَّا قسَا قلبِي وضاقَتْ مذاهبِي ... جعلتُ الرَّجا ربِّي، لعفوِك سلَّما

تعاظمَنِي ذنبِي فلمَّا قرنتُه ... بعفوِك ربِّي، كانَ عفوُك أعظمَا

وهذا من أجمل الأبيات التي فيها من الرجاء ومن حسن الظن بالله؛ لأنه صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**» فمن حسن الظن بالله في سكرات الموت أن تظن بالله خيراً، وأنه يغفر الذنوب، وأنه يتجاوز عن السيئات، وأنك تقدم على رب كريم، فمن هذا المعنى أخذ الشافعي وهو الإمام البحر العلامة غفر الله له وأكرم نزله.

وذكروا عن أبي نواس المقصر المسرف الذي بان ذلك من شعره، نسأل الله أن يتجاوز عن جميع المسلمين، يقول:

إن كانَ لا يرجُوك إلا محسنٌ ... فبمَنْ يلوذُ ويستجيرُ المجرِمُ

ما لِي إليكَ وسيلةٌ إلا الرَّجا ... وجميلَ عفوِك ثمَّ إنِّي مسلمُ

وهذا من الكلمات الجميلة، وإلا فقد ذكر عنه أنه قال كما قال الحافظ ابن كثير في التفسير أنه ذكر في بعض الرؤى أن الله غفر له، قالوا: بماذا؟ قال: بوصفي الوردة النرجسة، قلت فيها:

تأمَّلْ في نباتِ الأرضِ وانظُرْ ... إلَى آثارِ ما صنعَ المليكُ

عيونٌ مِنْ لجينٍ شاخصاتٌ ... بأحداقٍ هيَ الذهبُ السبيكُ

علَى كثبِ الزبرجدِ شاهداتٌ ... بأنَّ اللهَ ليسَ لَه شريكُ

وهذا من أجمل الأبيات في الوحدانية، فإن كل زهرة ووردة وورقة ويرقة وقطرة ماء ونسمة هواء وقطعة ظلماء تدل على رب الأرض والسماء. وصدق القائل:

وفِي كلِّ شيءٍ لَه آيةٌ ... تدلُّ علَى أنَّه الواحِدُ

فيَا عجباً كيفَ يعصَى الإلهُ ... أم كيفَ يجحدُه الجاحِدُ

ففي سكرات الموت كلام ينقل للأدباء والعلماء والحكماء والشعراء.

ومالك بن الريب الذي يرثي نفسه في قصيدة مؤثرة قالها بعدما لدغ بحية وهو في سكرات الموت، كان مالك بن الريب هذا من اللصوص الذين يقطعون طريق القوافل، فهداه الله سبحانه وتعالى، رأى جيش عمرو بن عثمان بن عفان، وقيل: أبان بن عثمان بن عفان ذاهباً للغزو، وقال بعضهم: بل سعيد بن عثمان ابن عفان ذهب يقاتل في الشمال مجاهداً، فتاب على يديه، وترك اللصوصية

والسرقات، ولما سار في الطريق وجاء الليل لدغته حية، فغشيه السم وتغير لونه وأشرف على الوفاة، وحفروا قبره، وأرسل رسالة للناس في قصيدة صادقة لا تجد في الشعر العربي أصدق منها تأثيراً ووقعاً، حتى يقول:

فللهِ درِّي يومَ أتركُ طائعاً بنيَّ بأعلَى الرقمتينِ وماليَا

أبناؤه وأمه وأبوه كانوا بأعلى الرقمتين، فاستبكى الحضور، واستدر الدمع من الناس، حتى رثى الفرس ورثى سيفه ورثى حياته:

وأشقرَ خنديدَ يجرُّ لجامَه إلَى الماءِ لم يتركْ له الموتُ ساقِيا

يقولُون: لا تبعدْ وهُمْ يدفنونَنِي وأينَ مكانُ البعدِ إلاَّ مكانِيا

فإن من عادة العرب أن يقولوا: لا تبعد.

ولا يوجد أبعد من مكاني، هذا هو البعد كله، فهذا الذي قاله في سكرات الموت، وهي كلمات صادقة مؤثرة.

وقد نقلوا في حديث صحيح: أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة أتت عائشة ابنته الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها قالت: «صدق الشاعر يا أبتاه!» وكانت فصيحة وأديبة، وكانت تحفظ الشعر، وعندها من الأدب الرصيد الكثير، وهذا البيت لحاتم الطائي، قالت:

لعمرُك ما يغنِي الثراءُ عنَ الفتَى إذا حشرجَتْ يوماً وضاقَ بِها الصدرُ

يقول: والله ما ينفع المال إذا خرجت الروح أو كادت. فحاتم يقول في قصيدته لزوجته ماوية:

أماويُ إنَّ المالَ غادٍ ورائحُ ويبقَى منَ المالِ الأحاديثُ والذكرُ

يعني: السمعة، يريد السمعة والثناء الحسن والمديح والذكر الجميل. أي: والله لا ينفع المال ولا القناطير المقنطرة ولا الأرصدة البنكية إذا ضاق الصدر بها.

وعلى ذكر الحشرجة فقد بنى هارون الرشيد قصراً مشيداً في بغداد جميلاً، وقال للشعراء أن يدخلوا؛ ليمدحوا القصر ويمدحوه، فدخلوا وأثنوا ومدحوا وباركوا وهنؤوا، ولما خرجوا دخل أبو العتاهية فوقف أمام هارون الرشيد، فقال:

عِشْ ما بَدا لك سالِماً ... فِي ظلِّ شاهقةِ القصورِ

قال هارون: هيه! أي: إنه طرب وانتعش واهتز بهذا المطلع الفخم والتبريك والتهنئة.

قال:

تجري عليكَ بما أردْ ... تَ مع الغُدوِّ معَ البكورِ

فاهتز وانتعش.

قال:

فَإذَا النفوسُ تغرغرَتْ ... بزفيرِ حشرجةِ الصدورِ

فهناكَ تعلمُ موقِناً ... مَا كنتَ إلا فِي غرورِ

فدمعت عيناه.

والآن أين أبو العتاهية؟! أين هارون الرشيد؟! أين القصر الذي بناه؟ أين الوزراء الذين حضروا؟ أين العلماء الذين احتفلوا؟ أين الشعراء والأمراء؟ أين الأغنياء الذين حضروا ذلك المكان؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨].

وإنما أقول هذا على ذكر الكلمات التي تحضر الناس عند الموت.

ونعود إلى المتنبي الذي يقول:

كفَى بك داءً أن ترَى الموتَ شافِياً وحسبُ المنايَا أنْ يكنَّ أمانِيا

في أبيات جميلة، وهذه بعض منها، يقول مادحاً نفسه:

خلقتُ ألُوفاً لَو رجعتُ إلى الصِّبا لفارقتُ شيبِي مُوجعَ القلبِ باكِيَا

أنا في وفاء دائم- والله أعلم به- ومن وفائي أنني لو شبت وطلب مني أن أرجع إلى الصبا؛ لأن الصبا محبب عند الناس، لكنت فارقت الشيب وأنا أبكي عليه؛ لأني إذا صاحبت أحداً وفيت له ولا أغدر.

ومن ضمن القصيدة هذه ذكر الوصل إلى كافور، يقول:

قطعتُ الفيافِي والشَّنَاخيبَ دونَه وجُبتُ هجيراً يتركُ الماءَ صادِيا

الفيافي والشناخيب: يعني الجبال. والهجير: يعني: القيظ والصيف وشدة الحر.

أبَا كُلِّ طِيبٍ، لا أبا المسكِ وحدَه وكُلِّ غمامٍ لا أخصُّ الغوادِيا

يقصد نوعاً من الطيب، والمسك نوع من الكافور.

ثم يقول في القصيدة:

وللنفسِ أخلاقٌ تدلُّ علَى الفتَى أكانَ سخاءً ما أتَى أم تساخِيَا

يقول: يُعرف الإنسان من حركاته أهو سخي جواد أم يجامل ويتساخى ولا يستمر؛ لأن بعض الناس يظهر الكرم، فتجده يرحب لكنه لا يستمر، ينقلب ويرجع إلى حاله.

وتجده يتكلف ويحاول لكنه لا يقدر، تجده إذا أتاه ضيف يهلل ويكبر ويخرج من البيت يكبر ويدخل يهلل. ويذبح ذبيحة ويستعين بالله ﷻ، ويتعوذ من الشيطان قائلاً: أعوذ بالله منك يا شيطان، الله يخزي هذا الشيطان، نسأل الله أن يلهمنا رشدنا، ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستخير الله، هل الأحسن أن يذبح شاة

أم الأحسن ألا يذبح، ثم يأتي يسن الشفرة، ثم يدخل على الضيف يقول: إن الدنيا فانية- لأنه قد ذبح هذه الشاة- ويقوم بإلقاء مواعظ، فإذا ذبحها دمعت عيناه من خشية الله وخاف. فيقول المتنبي: تظهر هذه العلامات على الإنسان البخيل، ليس مثل إبراهيم عليه السلام: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات:٢٦] سبحان الله! ما هذا الكرم؟! ذهب إلى هذا الثور الكبير وقدمه لهم بمجرد أن دخلوا عليه وألقوا عليه السلام.

ويقول في سورة هود: (حنيذ)، وإبراهيم له روغتان: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٩٣] على الأصنام التي عبدها الجهلة والكفرة، حطمها، والروغة الثانية روغة الكرم، فكان كريماً شديد الكرم، يقدم أحسن ما عنده وفوق هذا يقول: سامحونا على التقصير.. أما البخيل فيخرج العشرة الريالات ثم يطلق ثلاثاً ألا يحاسب إلا هو..! وإن جاء الشاي بريال ونصف فيقسم بالطلاق ألا يتولى الحساب إلا هو، ثم يلقي محاضرة بعدما يحاسب.. يقوم قائلاً: يا أخي، ماذا نريد بالمال؟ هذا واجب علينا، وعسى الله يعوضنا خيرًا، والدنيا ذاهبة، ما عند الإنسان إلا أخلاقه وكرمه.

أما السخي فتجده في جبلته يحب الكرم، يحب الجود، تجده رحباً.. وأهلاً وسهلاً.. كأنك تعطيه، كما يقول أحدهم:

تَـرَاه إذا مـا جئتَـه متهلِّلاً ... كأنّكَ تعطِيه الذِي أنتَ سائِلُه

وفي بيت من قصيدة أخرى يقول:

ولَو لَمْ يكُنْ فِي كفِّه غيرُ روحِه ... لَجادَ بِها فليتقِّ اللهَ سائِلُه

فبعض الناس سبحان الذي أعطاه! سهل في أخلاقه، في خدماته، في كرمه، يقول: ما عملنا شيئاً، سامحونا على التقصير، يغدي.. ويعشي.. ويعطي.. ويهدي.. ويقول فوق ذلك: سامحونا على التقصير، أما البخيل فسبحان الله!

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩] فهو وإن أخفى ما في نفسه فلا يستطيع أن يخفيه كثيراً.

والصالحون كان لهم كلمات في سكرات الموت، فمعاذ بن جبل قائد علماء الجنة رضي الله عنه وأرضاه العلامة البحر، قائد العلماء وقبلهم برمية حجر، والذي قال له ﷺ كما في السنن: «**إني أحبك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهمّ، أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» فمعاذ رضي الله عنه يقول في سكرات الموت: «اللهم، إنك تعلم إني لم أحب الحياة لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لعمارة الدور ولا لرفع القصور، وإنما أحببت الحياة لأمرغ وجهي ساجداً لك في السحر وأجالس أقواماً ينتقون أطيب الكلام كما ينتقى أطيب التمر، وأصوم لك يوماً شديد الحر» هذه الربانية، هذا الاهتداء، يقول سبحانه: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ [آل عمران:٧٩] أي: لا تكونوا كالبطالين العاطلين ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩] فجزاه الله خيراً وجزى إخوانه من الصحابة من المهاجرين والأنصار خير الجزاء وجمعنا بهم في جنات النعيم.

ومنهم المأمون الخليفة العباسي، فإنه قال كلمات في سكرات الموت قوية مؤثرة لما حضرته الوفاة، قال: أخرجوني إلى العسكر وإلى الجيش، فأخرجوه، قال: يا من، لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه.

لا الجيش ينفعه ولا الأطباء ولا الأمراء ولا الأثرياء ولا الثروة ولا العسكر ولا السيوف.. كل شيء ذهب، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨] وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦] فالبقاء لله سبحانه وتعالى، إنما هذه بعض الكلمات التي قالوها.

وفرعون في سكرات الموت قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠].

وعبد الملك بن مروان الخليفة الأموي يقول في سكرات الموت: يا ليتني ما توليت الخلافة. فسمع سعيد بن المسيب هذا الكلام وهو سيد التابعين.. العالم.. المجتهد.. البحر.. المحدث.. الزاهد.. العابد.. قال: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا في سكرات الموت ولا نفرّ إليهم. ذكر ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء.

وسمع مرة عبد الملك وهو في مرض الموت غسالاً.. وكان في قصر في دمشق، والرجل في وادٍ، سمع الرجل يغني، وليس عنده خبر بالخلافة ولا بعبد الملك أنه في مرض الموت، ينشد مرتاحاً، ليس عنده إلا ملابس يغسلها للناس ويأكل وينام مرتاحاً، قال عبد الملك: يا ليتني كنت غسالاً، يا ليتني ما توليت الخلافة، يا ليتني ما عرفت الملك.

وأذكر أن المحدث أبا زرعة رحمه الله وهو من الحفاظ الكبار، وقرين لأبي حاتم، حضرته سكرات الموت فأغمي عليه، فأراد الطلاب أن يذكروه بـ (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) لأنه كما صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة» فاستحيوا أن يذكروه؛ لأنه عالم وحافظ وبحر، فأتوا بالحديث لكي يروه فنسوا سند الحديث، قالوا: حدثنا فلان.. فغلطوا، فاستفاق من غيبوبته وقال: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة**» ثم قال: لا إله إلا الله، ثم مات. رضي الله عنه وأرضاه.

ومسلم صاحب الصحيح، مسلم بن الحجاج، وهو عالم رباني، رزقه الله القبول مع صحيح البخاري، أراد أن يبحث عن حديث ليلة من الليالي، حديث للرسول ﷺ يبحث عن صحته، فأتى بالكتب وعنده سلة كبيرة من التمر، هناك نوع من التمر من خراسان حار، إذا أكثر منه الإنسان يؤثر فيه، فنسي مع البحث عن الحديث نفسه وذهل، وأخذ يأكل التمر.. ثم أكل، حتى انتهى من السلة كلها،

ولما أصبح الصباح أثر عليه وهو يبحث الحديث، فقال: آه. ثم مات- غفر الله له- مات في سبيل طلب الحديث وطلب العلم، يخدم سنة النبي ﷺ، ولذلك أعطاه الله من القبول هو والبخاري، والآن في كل مسجد، في كل قناة.. في كل مجمع.. في كل جامعة.. في كل مجلس.. في كل مدرسة.. رواه البخاري ومسلم، فجزاهما الله خيراً على ما قدماه.

يقول أحد المحدثين، وقد كان في سكرات الموت، فسمع طلاب علم وراء جدار يقولون: حدثنا.. حدثنا..... وكان في حياته يقول: حدثنا...؛ لأن المحدثين يستخدمون كلمة حدثنا وأخبرنا، قال: أسندوني أسندوني، يعني: انتعش، وهو في سكرات الموت، فلما أسندوه قال:

سقُوني وقالوُا: لا تغنَّ ولَو سقُوا ... جبالَ سليمٍ ما سقيتُ لغنَّتِ

والبيت هذا لأحد العرب؛ لأنه سقوه مسكراً فقاله.

يقول: لو سقوها ما سقيت من الخمر لغنت. فنسأل الله ﷻ أن يلطف بنا، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها.